

المشروع القومي للترجمة

وسط الجزيرة العربية وشرقها

تأليف: وليم جيفور بالجريف

ترجمة: صبري محمد حسن

269

الجزء الأول

اهداءات ٢٠٠١
المهندس/ محمد عبد السلام العمرى
الإسكندرية

روع القومى للترجمة

وسط الجزيرة العربية وشرقها

(١٨٦٢ - ١٨٦٣)

(المجلد الأول)

تأليف

وليام جيفورد بالجريف

ترجمة

صبرى محمد حسن



٢٠٠١



قائمة محتويات

المجلد الأول

الصفحة

الخرائط والمخططات


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الترجمة

كتاب كتبه مؤلفه منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عامًا ، ويتناول فترة زمنية مراجعها السياسية نادرة جدًا وغير دقيقة ، وإذا كان بوكو Pococke الفرنسى ، وبركخارت Burckhardt ونيبور الألمانيين قد كتبوا عن هذه المنطقة من الناحية الجغرافية أو الطبوغرافيه فقط ، بحكم أن ما كتبوه كان على مرأى ومسمع من السلطات التى كانت تقوم على أمر تلك المنطقة فى ذلك الوقت ، فإن كتاب "وسط الجزيرة العربية وشرقها" يتناول الجانب الديموغرافى والأنثربولوجى الذى غاب عن هؤلاء المؤلفين .

ومؤلف هذا الكتاب إنجليزى دمًا ولحمًا ، أعد نفسه لموضوع هذا الكتاب إعدادًا جيدًا ؛ فقد درس العربية إلى أن كادت تكون لغته الأم ، فضلاً عن إجادته للغات الفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، وكذلك اللغة اللاتينية ، ومعرفته أيضًا للغة اليونانية القديمة ، كما درس أيضًا مقررًا فى طب المناطق الحارة .

وفى بداية الأمر وصل هذا المؤلف إلى مدينة مُعَان فى العام ١٨٦٢ الميلادى ، واستأجر سوريًا أسماه بركات فى حين أطلق هو على نفسه اسم : سليمان العيص ، واتفقا على أن يتنكرا فى زى طبيب عربى ومساعده .

وينطلق ذلك الطبيب العربى المستعار ومعه مساعده من مدينة مُعَان إلى مدينة الجوف ، ويكسب ود حاكمها الذى فشل فى اكتشاف شخصية ذلك الطبيب الحقيقية ، وبعد أن يكسب ثقة حاكم الجوف ، يتوسط الأخير له عند حاكم حائل ، الذى فشل بدوره فى تعرف شخصية هذا الطبيب الحقيقية ، ويمكث ذلك المؤلف فترة فى حائل دوّن خلالها ملاحظاته – مثلما فعل فى الجوف – عن كل شاردة وواردة ، ثم ينطلق من حائل إلى بريده التى شاهد فيها المعركة التى شنها محمد بن فيصل على عنيزة لإخضاعها والاستيلاء عليها ، ومن بريدة ينتقل إلى الرياض التى فشل أهلها أيضًا فى اكتشاف شخصيته الحقيقية ، برغم أنهم ناقشوه ، من منطلق "الوهابية" فى الإسلام بصفة عامة ،

والكبائر بصفة خاصة ، وأثبت لهم أنه ضليع في الدين ، وحاولوا اكتشافه عن طريق التحدث إليه بالإنجليزية ولكنهم فشلوا في ذلك أيضًا ، ونجح في استمالتهم إليه وتسخيرهم لأغراضه فيما يتعلق باستخلاص المعلومات والحصول عليها .

وبحكم أنه كان طبيباً ، ولندرة الأطباء في تلك المنطقة في ذلك الوقت أصبح مقرباً إلى الصفوة ودوائر صنع القرار ، بل إنه كان من المقربين إلى أفراد البلاط الملكي ، مما جعله قريباً من الأحداث ، ويقضي بالجريف في الرياض فترة من الزمن تصل إلى قرابة الخمسين يوماً ، ينتقل بعدها إلى الأحساء دون أن يُكْتَشف أمره ، ومن الأحساء ينتقل إلى البحرين، ومن البحرين إلى قطر حيث يزور رأس ريكان ، والبداع ، ويزور الدوحة ، ووقرة ؛ ويتكلم عن بدو المناصير وبنو ياس ، ويغادر قطر إلى بر فارس على سفينة فارسية ، ويتحدث عن صخور هلُّول وينزل في شاراك ، ثم يبحر إلى لينجا ومنها إلى سواحل عُمان ، حيث يزور الشارقة وخورها وميناءها ، ثم يصل بحراً من السُّويِّق إلى صوحار، ويزور رأس الخيمة وساحل الجبل، ورءوس الجبال ، وشاعام ، وخبب ، ويصل إلى رأس مسندم ويرى صخور سلامة ، ويزور هرمز ، ويزور روبه ، وليمة وميناءها ، ويزور قلحاط (قلحوط) وقطّاع اللحِّي ، وباطنة ، والفجيرة ، وشيناز ، وفرقصة ، ثم يصل إلى مسقط ، والظاهرة ، والجبل الأخضر .

ويغادر مسقط إلى بندر عباس ، وشيرو ، وأبو شهر ثم إلى البصرة ، ومنها إلى بغداد في العراق ، ثم يعود إلى سوريا لينطلق منها في النهاية إلى بريطانيا .

وتستمر رحلة هذا المغامر عامًا كاملاً ، يجمع خلاله مادة علمية أصيلة ، من أفواه الناس ، ومن ملاحظاته الشخصية ، ليكتب كتاباً في مجلدين إجمالي صفحاتهما حوالي ألف ومائتي صفحة من القطع الكبير .

وعلى الصعيد اللغوي يندرج الكتاب ضمن الأدب الراقي ، ودقة مؤلفه في اختيار ألفاظه ومصطلحاته تغيظ قارئ النص الإنجليزي ، وتفاصيل الكتاب كثيرة وتشد الانتباه وتوحي بغزارة مادته .

بقي أن أقول : إن نص الكتاب لم يكن سهلاً ، فقد استغرقت ترجمته حوالي العام ونصف العام ، رجعت خلالها إلى الكثير من المراجع والمصادر ، فضلاً عن الاستنارة بآراء كثير من أساتذة الجامعة الزملاء المتخصصين في الجغرافيا، وفي اللغة الإيطالية، وأخص منهم الأستاذ الدكتور / سلامة محمد سليمان ، الذي لا أنكر فضله في ترجمة

الأبيات التى اقتبسها المؤلف عن "الكوميديا المقدسة" التى ألفها دانتى الشاعر الإيطالى الفحل ، كما استعنت أيضًا بأساتذة قسم اللغات القديمة بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، فى ترجمة مصطلح أو اثنين وردا باللغة اليونانية القديمة ، وترجمة بعض التعبيرات اللاتينية أيضًا ، أما عن الأبيات التى أخذها المؤلف عن جيته الشاعر الألمانى العظيم فلم تستقر ترجمتها لدىَّ إلا بعد أن راجعت أساتذة هذه اللغة ، ثم فى النهاية السفير الألمانى فى القاهرة .

وعلى صعيد إعداد الكتاب للنشر فقد أنهى الأستاذ الدكتور / حلمى عبد المنعم - وكيل كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف - قراءة مخطوطة ترجمة المجلد الأول وأعد الهوامش الخاصة بالرد على القضايا الشرعية فى الكتاب .

وفيما يتعلق بالأسماء ، لم يترك المؤلف مجالاً لأى اجتهاد وبخاصة فيما يتعلق بأسماء الأماكن فى وسط الجزيرة العربية ، فقد كان يدون الأسماء تدوينًا صوتيًا حسب سماعه لها ، وأشهر مثال على ذلك هو الاسم (قلحاط) الذى دونه أيضًا على أنه (قلحوط) من منطلق سماعه لهذا الاسم ملفوظًا بتلك الطريقة أيضًا ، وبرغم ذلك يؤكد المؤلف فى مقدمة الكتاب أنه لاقى شيئًا من الصعوبة فى الأسماء ، وتمنى أن يصحح ذلك إن امتد به العمر لإصدار طبعة ثانية من الكتاب ، وهذا لا يعيب الكتاب ، إذ إنه يترك لنا حرية الإبقاء على الاسم كما هو داخل النص ، على أن نضيف هامشًا بالتصحيح المطلوب وذلك توخيًا لمبادئ الأمانة العلمية وأصول التحقيق العلمى الدقيق ، زد على ذلك أن تناول المؤلف لأسماء الأماكن وبخاصة فى وسط الجزيرة العربية ، كان رائعًا ، مما جعلنى أشرع فى كتابة بحث عن الأسماء التى وردت فى المجلدين ، على أمل أن أنتهى منه وأنشره بعد نشر الكتاب .

ولم يغب عن بال بالجريف - وهو على طريق توخى الدقة والإمعان فيها - أن يورد ضمن الكتاب عدداً من الكروكيات التى حدد فيها مواقع بعينها ، قام هو بزيارتها ، أو أقام فيها ، فضلاً عن خريطة وقع عليها خط سير رحلته ، وأبى أن يضيفها إلى الكتاب إلا بعد أن عرضها على الجمعية الجغرافية الألمانية ، التى شهدت بدقتها ودقه تفاصيلها .

واستكمالاً لأمانة التحقيق العلمى الدقيق ، نحن نرحب بالتعليق على الأحداث السياسية فى الكتاب ، مع تحديد مواضعها فى النص ، أسوة بما فعلته كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف ، وأن تكون تلك التعليقات موقعه من أصحابها الذين نفضل أن يكونوا من بين الشخصيات المشهود لها بالعلم .

والكتاب جرىء سياسيًا ، ويحتاج لناشر جرىء أيضًا ؛ لأنه يتعرض لكثير من الأمور السياسية الحساسة التى لا يعرف كثير من المثقفين وصنّاع القرار حقائقها الأصلية ، كما يتعرض للدور المصرى فى التعامل مع "الوهابيين" فى تلك المنطقة ، ويكشف عن كثير من حقائق المطبخ السياسى فى ذلك الوقت .

ويسعدنى أن أورد هنا أيضًا أن هناك مؤلفًا عاصر بالجريف مؤلف هذا الكتاب ، وشاركه فى جزء من رحلته ، ووضع كتابًا آخر ما زلت أبحث عنه ، وأتمنى أن أعثر عليه ، وعندها سيكون لكل حادث حديث .

وإن قدر لهذا الكتاب أن يرى النور مترجمًا ومنشورًا بطريقة لائقة تناسب أهميته ، فإنه سيثير الكثير من الجدل السياسى والعلمى ، وسوف يصحح كثيرًا من المفاهيم المغلوطة ، ولا أبالغ إن قلت : إنه سيكون من الكتب الرائجة التى تشكل إضافة حقيقية إلى المكتبة الخليجية بصفة خاصة ، والمكتبة العربية بصفة عامة .

صبرى محمد حسن

مقدمة

هذه الرحلة التى قمت بها إلى كل من وسط الجزيرة العربية وشرقيها ، مستهدفًا بها الاستكشاف والملاحظة وليس النشر ، هيأت لى الحصول على قدر كبير من تفاصيل هاتين المنطقتين ، التى تستحق التسجيل والتدوين ، وأنا أعترف أن ظروف زيارتى لهاتين المنطقتين ، وكذلك القيود التى لازمت تنكُّرى الوطنى ، هما اللذان حالا بينى وبين القيام بالبحث الأثرى والاستقصاء الجيولوجى والنباتى ، كما حرمانى أيضًا من استعمال الوسائل اللازمة للتحرى العلمى الدقيق ؛ من ذلك – على سبيل المثال – الأدوات المعتادة اللازمة لمعرفة خطوط الطول ودوائر العرض ، والأدوات اللازمة لقياس درجة الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف ، والأسوأ من هذا كله أننى – فى بعض الأحيان – لم أكن أستطيع تدوين ملاحظة واحدة ، أو الاحتفاظ بكراسة من كراسات المخططات أو حتى آلة من آلات التصوير ، برغم جمال المناظر الطبيعية وسطوع الشمس ؛ ومن هنا اعتمدت على قلمى فقط فى القيام بدور القلم ودور المرسام (قلم الرصاص) ، فى حين سيكون خيال القارئ قادراً على الوفاء بما يتبقى بعد ذلك ، وسوف أتناول فى القصة الأسباب التى دعت إلى كل ذلك ، وعلى الجانب الآخر ، فإن السنوات الطوال – أحلى سنوات عمرى فى الواقع – التى أمضيتها فى الشرق ، وإتقانى للغة العربية إلى أن أصبحت لغتى الأم ، فضلاً عن معرفتى بأخلاقيات وسلوكيات الشعوب "السامية" ، إن جاز لى أن أستعمل الاسم الرمزى لهذه الشعوب ، كل هذه الأشياء أعطتنى مزايا تزيد بكثير على العيوب التى سبق أن ذكرتها ، يضاف إلى ذلك أن سكان هذه الأرض ، وليست أرض هؤلاء السكان كانوا هم الهدف الرئيسى لهذه الدراسة وهذا البحث ، لقد كان اهتمامى منصبًا أصلاً على الأحوال الأخلاقية ، والظروف الفكرية والسياسية لسكان هذه البلاد ، ذات الأهمية الكبيرة ، ولكنها ليست لها هذه الأهمية عندى ، أما فيما يتعلق بالملاحظات التى أوردتها عن العصور القديمة ، وعن العلم ، وكذلك الملاحظات التى أوردتها عن النباتات والأحجار ، وعن الجغرافيا والأرصاد ، فأنا أعترف بأنها ليست على ما يرام .

وقد دونت الحروف العربية ، بالحروف الإنجليزية ، مستعملاً فى ذلك الطريقة التى استعملها لين Lane فى كتابه الجميل المعنون "المصريون المحدثون" باعتبار أن ذلك الشكل من التدوين هو الشكل المفهوم من القراء الإنجليز ، وأنا عندما دونت الجيم التى تأتى فى بداية الكلام باستعمال Dj بدلا من J (التى استعملتها فى تدوين الجيم عندما تجيء فى وسط الكلمة أو فى نهايتها) ، أكون قد خالفت أبناء بلدى فى طريقة التدوين المتعارف عليها ؛ كما وجدت أنه ليس من الضرورى أن أنبر الصوائت ، واكتفيت فى ذلك بوضع (–) لتدل على أن الصائت طويل أو منبور ، وذلك فى المواقع التى تتطلب مثل هذه العلامة ، وقد تكون هناك بعض الأخطاء ، أو بعض الشواذ على أقل تقدير ، التى استرعت انتباه المصححين والمراجعين فى الطبعة الأولى ؛ وأنا أعتقد أن الطبعة الثانية ، سوف يجرى فيها تحاشى هذه الأخطاء وتلك الشواذ ، والخرائط التى ألحقتها بهذا الكتاب رغم أنها ليست دقيقة تماماً إلا أنها توضح ، إلى حد ما ، السمات الرئيسة وكذلك التقسيمات الرئيسة للمناطق الرئيسة ، وللمدن وللبلاد كلها بصفة عامة .

والقارئ ، ربما يود أن يعرف الهدف المخصص لهذه الرحلة والظروف الحاكمة لها ، لقد كان يحدونى أمل كبير فى الإسهام فى شيء من أجل الصالح الاجتماعى لهذه المناطق الشاسعة ؛ كان يحدونى أمل تحريك مياه الحياة الشرقية الراكدة حتى تلحق بأنهار التقدم الأوربى الجارية وتتصل بها ؛ وربما لدى أيضاً دافع لتعرف ذلك الذى كنت أجهله حتى ذلك الحين ، وكذلك الرغبة فى الاستكشاف التى تملأ قلوب الإنجليز : كانت تلك هى الدوافع الأساسية ، ويمكن لى بصفتى المؤلف ، أن أضيف إلى ذلك ، أننى كنت منضماً فى ذلك الوقت إلى الجمعية اليسوعية ، تلك الجمعية التى اشتهرت فى حوليات التاريخ بأعمالها التى تستهدف حب البشر والناس ؛ ويجب أيضاً أن أعترف ، بصفتى المؤلف ، بخالص شكرى لامبراطور فرنسا الحالى ، على كرمه فى توفير المخصصات النقدية اللازمة لهذه الرحلة .

ومن الأهمية بمكان أن تكون لدينا فكرة صحيحة عن الشعوب والأمم التى يغلب على الظروف أن تجعلنا أكثر اتصالاً بها ، وكذلك الشعوب التى يحتمل أن نكون نحن فى المستقبل ، متحكِّمين بفضل العناية الإلهية ، فى كثير من أمورها المستقبلية ، ويؤسفنى أن أقول : أن هذه الأفكار تبدو مشوهة ومبالغ فيها ، فى كثير من الأحيان ،

ومع ذلك فهى تمثل الأفكار السائدة فى الغرب عن أهل الشرق ، ويمكن أن نرد هذه الأفكار إلى الملاحظة غير الدقيقة ، وربما أيضًا إلى تعمد الإساءة ؛ كما يمكن أن نردها أيضًا إلى الرَّحالة ، الذين يبلغ انشغالهم بأفكارهم وتخيلاتهم حداً ، يحول بينهم وبين فهم الأطوار العقلية والسلوكية التى تسود بين شعوب غير شعوبهم ؛ هذا فى الوقت الذى ربما يكون الخيال الجامح قد سلط فيه ضوءًا باهرًا على أضواء الشرق الخافتة ، لقد كان هدفى الرئيسى من هذه الدراسة ، هو إعطاء فكرة صحيحة ، إلى حد بعيد ، عن العرق العربى ، وعن حالة هذه العرق الفكرية والسياسية ، والاجتماعية والدينية ؛ على النحو الذى رأيته أنا شخصيًا ، ولو يسعدنى الحظ بتحقيق ذلك ، فلن أتطلع إلى أكثر منه ، إن الكثير من هذا الكتاب لن يفيد منه فقط الأمم والشعوب والقبائل التى تسكن شبه الجزيرة العربية ، وإنما سيساعد أيضًا على فهم كثير من بلدان وشعوب الشرق ؛ سيساعد على فهم كل من مصر ، وسوريا ، وبلاد الرافدين ، بل فهم الأناضول ، وكوردستان ، وبلاد فارس ، نظرًا لأن كل هذه البلاد عدَّلت الكثير من أمورها بفضل تأثير العرب عليها ، وبفضل اختلاط العرب بها واستعمارهم لها . ومن هنا ، فأن الفهم الواضح لأسباب الازدهار والتدهور فى الجزيرة العربية وداخل حدودها المستقلة ، قد يساعد مساعدة كبيرة فى حل كثير من الألغاز داخل أطوار مناطق الامبراطورية العثمانية التى تجاور الجزيرة العربية ، كما قد يساعد أيضًا على حل ألغاز الحكومات الأسيوية الأخرى . زد على ذلك ، أننى سوف أركز بصورة خاصة ، على التطبيق العملى ، والنتائج التى ترتبت على تلك الظاهرة العجيبة من ظواهر الذهن البشرى ، أو أن شئت فقل العقيدة المحمدية[1] ، أو بالأحرى الإسلام ؛ وأنا أود أن أضع هذه النقطة بصفة خاصة أمام أعين هؤلاء – فى الشرق أو الغرب على حد سواء – الذين يودون أن يعربوا عن إيمانهم بالنبى وإعجابهم به وبرسالته .

وفيما يتعلق بصحة الحقائق والأحكام التى تتعلق بماضى الجزيرة العربية وحاضرها ، والتى أوردتها فى هذا الكتاب ، قد يكون من المفيد أن أشير إلى أننى كنت أميز، على طول الخط ، بين ما شاهدته حقيقة أو تأكدت منه عن طريق التحرى الفعلى، وبين ذلك الذى استخلصته أو استنتجه ، وذلك الذى جمعته على شكل روايات من أفواه

(١) ليس فى الإسلام ما يعرف بالعقيدة المحمدية وإنما العقيدة فى الإسلام تنسب إلى الله فيقال العقيدة الإلهية (د. حلمى عبد المنعم) .

مواطنى هذه البلاد ، وهذا بدوره يجعلنى أقسم مادة الكتاب إلى ثلاث مستويات ، أزعم أن المستوى الأول منها يصل إلى مستوى التأكيد واليقين ، أى أنه يرقى إلى المستوى الإنجليزى الذى يقول المرء فيه : "لقد شاهدت" أو "لقد سمعت" ، وأنا أضع القسم الثانى تحت تصرف القارئ لينقده ويقول رأيه فيه ، ثقة منى أن السنوات التى أمضيتها فى الدراسات الشرقية، وفى الملاحظة ، وفى المقابلات ، سوف تصحح الحكم، عندما ينحرف ، ليكون فى صالحى ؛ وأنا بدورى لا أريد أن أفرض نظرياتى واستنتاجاتى على أولئك الذين قد يكون لديهم من الأسباب ، ما يجعلهم يَشُكُّون فى صحة هذه النظريات أو تلك الاستنتاجات ، وفيما يتعلق بالجزء الثالث ، أى الجزء الخاص بالروايات المسموعة ، فأنا أتركه لرأى القارئ وتقويمه ، ليقول فيه ما يشاء . والشيء الوحيد الذى أريد أن أركز عليه هنا ، وأنا أنقل عن مصادر من هذا القبيل ، هو التأكد إن كانت تلك المصادر من مواطنى البلدان التى يصفونها أو جيران لها على أقل تقدير ، وهل شهدت هذه المصادر تلك الأحداث التى حكت لى عنها ، أم أنها كانت غير هذا وذاك ، وقد وجدت ، من الصعب ، أن أُدوِّن أسماء هؤلاء الأشخاص ، وألقابهم ، حتى لا أملا صفحاتى بقوائم طويلة من قبيل محمد ، وحسن ، وعلى ، وهو تكرار يشبه إلى حد بعيد ، ما يحدث فى إنجلترا عندما نكرر الأسماء التى من قبيل توماس ، جون ، أو وليام .

وينبغى أن أشير هنا أن مسألة عمل حواشى ، فى نهاية كل صفحة ، أشير فيها إلى أسماء المؤلفين الشرقيين ، لن تقدم أو تؤخر وإذا ما أراد أى مستشرق أن يتعرف هؤلاء المؤلفين ، فأنا أذكر من بينهم أعمال كبار المؤلفين الذين يمكنه الرجوع إليهم إذا ما سنحت له الفرصة وتوفر له الوقت ومن أشهر المؤلفين الذين رجعت إليهم[1] : حماسة أبو تمام ، معلقات امرؤ القيس ، المقريزى ، شمس الدين الدمشقى ، ابن خلِّكان ، ابن خلدون ، الحريرى ،المقَّرى ، أمثال الميدانى ، ألف ليله وليله ، (الكتاب الذى فيه من المغزى أكثر مما تسمعه الأذن) ؛ قصة عنترة ، وأبو زيد ، وبنو هلال ، والزير الشجاع، وقصائد أو "ديوان" عمرو بن كلثوم، وقصائد جرير ، وديوان الأخطل ،

(١) ينبغى مراعاة ذكر المؤلفين أولاً أو ذكر الكتب أولاً ثم المؤلف . وقد أشار الكاتب فى بدء عبارته بأنه يذكر أشهر المؤلفين لكنه خلط فذكر الكتاب ثم مؤلفه ، وأحيانًا يذكر المؤلف فقط ، وأحيانًا يذكر الكتاب فقط ، وهذا خلط علمى .

والفـرزدق ، والمغـربى ، والمتنبى ، وابن الفـارض ، وأبـو العـلاء ، والنابلوسـى ، وديوان حظيل ؛ علاوة على تفسير القرآن لكل من البيضـاوى ، والزمـخشـرى ، وجلال الدين ، وآخرين ، كمـا رجعت أيضـًا لكتابات الغزالى الصـوفـية ، الكبـريت الأحـمـر ، الأنوار القدسية ، ومقالات محى الدين ، وآخرون ، من أولئك الذين لم يصلنا من أعمالهم سوى قصاصـات صـغيرة ؛ كمـا رجعت أيضـًا لكثـيـر من المخطـوطات مـجـهولة المؤلفــين التى تتناول الجــانب التــاريخى والجــانب الأخـلاقى ، وكنت قـد حـصـلت على تلك المخطوطات من بعض مـعـارفى فى كل من سـوريا ومـصـر ، ولكن مـعظم هـذه المخطوطات قـد أحرقت أو دمرت بفعل أصدقائى الدروز عندما أحرقوا رحله ومعها منزلى أيضـًا فى العـام ١٨٦٠ الميـلادى ، وأنا هنا أحـيل القـارئ الكريم ، إلى هذه المصـادر ، كيما يتأكد بنفسه من الإشارات والحقائق التى أوردتها فى هـذا الكـتـاب ، أو النظريات التى جمعتها من كتب هؤلاء المؤلفين .

أما فيما يتعلق بالمراجع الأوربية الخاصة ببلاد الشرق ، وعن الترحال فى الجزيرة العـربية والمناطق المجاورة لهـا ، فلم أقـرأ سـوى القليل منهـا ، وهذا لا يرجع إلى عـدم رغبـتى فى ذلك ، وإنما لضيق وقتى ، وقد أغرانى أسلوب نيبور البارد والعذب والمحايد إلى دراسة رحلته التى قام بها إلى الجزيرة العربية ؛ ولقد أعجبتنى كثيرًا صراحة هذا الرجل وصـدقه ، فضـلاً عن مـلاحظاته الدقيقة والفاحـصة ، ولقد وجدت أن هذا الرجل الفذ قد جانبه الصـواب فى بعض المسـائل الطفيفة ، وقد اكتشـفت ذلك ، أثناء قيامى برحلـتى ، مع احـترامى الشـديد لهـذا الألمانى الفذ ، وكنت أترك للقارئ الحكم بعد أن أضـع أمامه العبارتين المتناقضتين .

وبعد أن عدت إلى بلدى ، وضـعت أمـامى وتحت تصـرفى مذكرات الكابتن ولستد WELSTED ومـذكـرات السـيـد/ والين WALLIN، باعـتـبـارهـا من منشـورات الجـمـعـيـة الجـغرافـية الملكية ، وقد اكتشـفت أن رحلتى ، تؤيد دقه هـذه المذكرات ، والفـارق بينى وبين هذين الرجلين أن أبحـاثهـمـا كـانت أبحـاثًا طبـوغـرافـيـه فى الأسـاس ، إذ لم تلق أبحـاث هـذين الرجلين بالاً يذكر للظروف السـكانية فى هذه البلاد ، وأنا برحلتى أسـد ذلك الفراغ فى أبحاث هذين الرجلين .

وفـيـمـا يتـعلق برحـلات كل من بوكوك POCOKE، وبركـخـاردت BURCKHARDT، وآخـرين فـأنا ليس لدى مـا يمكننى من تـأييـدهـا أو رفـضـهـا ، ويبـدو لى أن رحلة بركخاردت فيها شىء من المبالغة ، وهذا أمر شـائع فى مؤلفين كثيرين آخرين ، وذلك فيما يتعلق بالبدو وحياة البدو ؛ وربما نجد فى كتاب بركخاردت ، أيضـًا ، شيئًا من

عدم الوضوح وعدم الدقة فى الصور التى رسمها بركخاردت للحياة الاجتماعية ، بل هناك عدم وضوح وعدم دقة أيضًا فى إحصائياته ، وأنا أرى قلة قليلة من المؤلفين هى التى استطاعت تقييم السكان الجائلين ، فى الجزيرة العربية ، تقييمًا عادلاً وحقيقيًا ، كما أن فئة من المؤلفين ، أقل من هذه الفئة القليلة ، هى التى استطاعت أيضًا تقيم السكان المقيمين من سكان الجزيرة العربية ، تقييمًا عادلاً ؛ وأن عددًا من المؤلفين ، يعد على أصابع اليد الواحدة ، هم الذين فهموا الطريقة التى يعمل بها النظام العشائرى (القبلى) بين السكان المترحلين والسكان المقيمين ، وفى الأماكن التى تكمن فيها القوة والأماكن التى يكمن فيها الضعف ، ومحصلة هذا الفهم النهائية غامضة وغير واضحة ، إضافة إلى التفاصيل المفككة تعد ناقصة وغير كافيه ؛ ولكن إذا ما أخذنا بعين اعتبارنا الصعوبات التى اعترضت طريقهم ، فإننا يجب أن نمتدحهم ونثنى عليهم ، بدلاً من انتقادهم على ما فاتهم .

وإذا كنت قد استقيت من الجيل الماضى شيئًا من العون والمساعدة ، فإن ذلك كان بفضل أصدقائى الأحياء أصحاب المعرفة الواسعة والمكتسبات الشرقية الكثيرة التى مكنتهم من أن يكونوا خير عون لى فى الزيادة والحذف والتعديل ، بل الحصول على بعض المعلومات ، وأنا أتوجه بالشكر إلى الأستاذ رودجير فى برلين ، وإلى السيد / ستانلى بول ، فى لندن ، لأنهما هما اللذان وضعانى على هذا الطريق فى ظل التزامات واقعية ودائمة ؛ وأنا يسعدنى أن أذكر اسميهما ، لا لاستبعاد الأصدقاء الآخرين ، وإنما ليكونا مجرد رمز إلى قائمة طويلة من الأصدقاء وأصحاب الفضل ، هما يقفان على رأسها ، وخريطة الجزيرة العربية ، الدقيقة والعامرة بالتفاصيل التى ألحقتها بهذا الكتاب راجعها الأستاذ / كايبرت البرلينى ، بدقته وعلمه المعهودين فيه ؛ يضاف إلى ذلك أن الجمعيتين الجغرافيتين فى كل من لندن وبرلين ، ممثلتين فى رئيسيهما : السير/روديرك RODERICK مورشيزون MURCHISON والأستاذ/بارت BARTH ، قد قدمتا لى كثيراً من العون والمساعدة ، وخلاصة القول أن العاصمة الإنجليزية وعاصمة شمالى ألمانيا ، قدمتا لى كل ما يمكن أن يكون تعاونًا معى ومسانده لى . وبالتالى أن كان هناك أى تقصير ، فى هذا العمل الذى أضعه أمام القارئ ، فذلك مردة لى أنا شخصيًا ، برغم إنى بذلت قصارى جهدى لتقليل هذه الأخطاء إلى أقل حد ممكن ، ولكن أتمنى أن يكون القارئ على استعداد الآن لمرافقتى أثناء رحلتى ، ومن ثم ، وبدون أية مقدمات هيا بنا نركب جمالنا ونرحل .

الترحال والإقامة

فى

وسط وشرقى الجزيرة العربية



الفصل الأول

الصحراء وسكانها

ولكنى أرى أن الهمجى الكئيب أقل من الطفل المسيحى .

ألفريد تينيسون

الرحيل عن مُعَان – رفاقنا البدو – المتاع والتنكر ؛ أسباب التنكر ونوعه الأحداث التى وقعت فى مُعَان – عبادة البدو للشمس – ملاحظات عن دين البدو وأخلاقهم – آبار وَقْباء – خمسة أيام فى الصحراء الشرقية – طريقة الترحال – الأخبار الأولى عن طلال بن الرشيد – الآبار – الوصول إلى وادى السِّرحان – مُخيَّم الشرارات – كرم البدو وأحاديثهم : – ظروفهم الاجتماعية – السَّمْح والمصاع – نفوذ حكومة طلال على البدو – الطُّرف والنوادر – الحروب – نظرة عامة على التكوين الأول للجنسية العربية ، تقسيم هذه الجنسية إلى عرب عاربة وعرب مستعربة ، قيمة كل منهما – طريق وادى السرحان : الكثبان الرملية والغاضة – ملاحظات على الجمَّال – شرارة عزَّام فى المعجوع – تغيير المرشدين – الطريق إلى الجوف : النعام ، العقارب – جبل الجوف : قرية جُون – أول لقاء مع رجال الجوف – مداخل الوادى .

"هيا بنا نحاول ، بشكل نهائى وقاطع ، أن نتعرف الجزيرة العربية تعرفًا كاملاً وشاملاً ، بعد أن تعرفنا سواحلها إلى حد كبير ؛ فقد اسْتُكْشِفَ بالفعل كثير من مناطقها البحرية استكشافًا كافيًا إن لم يكن كاملاً ؛ ولم يعد اليمَن أو الحجاز أو مكة أو المدينة ألغازًا بالنسبة لنا ، فضلاً عما لدينا من معلومات أيضًا عن منطقتى حضرموت وعُمَان ؛ ولكن هل ما نعرفه بحق من خلال الروايات والأوصاف ،

عن المناطق الداخلية من الجزيرة العربية ، وعن سهولها وجبالها ، وقبائلها ومدنها ، وعن حكوماتها ومؤسساتها ، وعن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم ، وعن ظروفهم الاجتماعية ، ومدى تقدمهم الحضارى أو مدى تخلفهم ، هل ما نعرفه الآن يجنبنا مخاطر الروايات والأوصاف التى تفتقر إلى الدقة والكمال ؟ وهل ردم هذه الفجوة ، التى سنحاول ردمها في خريطة أسيا برغم المخاطر التى قد تترتب على ذلك ؛ ستجعل الأرض التى أمامنا مقبرة لنا ، أم سنغيرها من أقصاها إلى أقصاها ونعرف كل ما تحتوى عليه ؟ "لا تراجع إلى الوراء" .

كانت هذه ، أو هكذا كانت ، الخواطر التى دارت بخلدى ، وبخلد رفيقى تقريباً ، عندما وجدنا نفسينا مع حلول الليل خارج البوابة الشرقية فى مدينة مُعَان ، بينما راح كل من العرب الذين سيرشدوننا هم والعرب الراحلين الآخرين يملأون قرب المياه من مصدر الماء الذى ينبثق من خارج أسوار البلدة مباشرة ، ويعدّلون سروج وأحمال جمالهم ، استعداداً للرحلة الطويلة التى تنتظرنا وتنتظرهم ، حدث ذلك ، فى مساء اليوم السادس عشر من شهر يونيو من العام ١٨٦٢ الميلادى ؛ وكنا نرى النجوم الكبيرة وهى تتلألأ فى أعماق السماء الزرقاء السحيقة الخالية من السحب ، فى حين كان الهلال ساطعاً ، ناحية الغرب ، كما هى عادته فى سماء تلك المناطق ، مما بعث فينا أمل مساعدته لنا لبضع ساعات فى مسيرتنا أثناء الليل ، وسرعان ما ركبنا حيواناتنا الهزيلة طويلة الأعناق ، وغدونا كما يقول الشاعر العربى "كما لو كنا على قمة السوارى" ، ويممنا المسير ناحية الشرق ، وتراءت لنا من خلفنا قلعة معان وأسوارها كما لو كانت كتلة من الظلام محدودة المعالم الخارجية هى ومنازلها وحدائقها ، ومن ورائها عن بعد سلسلة جبال شراع SHERA'A المتصلة بسلسلة جبال الحجاز الساحلية ، ومن الأمام وعلى الجانبين كان يمتد سهل واسع ومستوٍ ، اصطبغ باللون الأسود بفعل حصى البازلت وحصى الصوّان الذى لا يحصى ولا يُعد ، اللهم باستثناء تلك البقع الرملية التى كانت تتخلل ذلك الحصى وتتلألأ عليها أشعة القمر البيضاء ، أو تلك الأشعة الضئيلة الضاربة إلى الاصفرار التى كانت تعكسها الأعشاب الذابلة الزاوية ، التى أنتجتها أمطار الشتاء القليلة ، ثم تحولت الآن إلى هشيم جاف ، يضاف إلى ذلك كله ، ذلك الصمت الرهيب الذى كان رفاقنا العرب يخشون أن يكسروه ؛ فقد كانوا لا يتكلمون إلا همساً ، وبأقل الكلمات ، فى حين كان وقع أقدام الجمال يسرع الخطى خلسة خلال الظلام ، دون أن يفسد سكونه .

وكنا قد اتخذنا بالفعل بعض الاحتياطات ، لأن تلك المرحلة من الرحلة التى نحن مقبلون عليها كانت تتسم بالأمان والسلامة ، فقد كنا قاصدين منطقة الجوف ، أقرب المناطق المأهولة فى شبه الجزيرة العربية ، إلى بلدة معان ، أو أن شئت فقل كنا قاصدين إلى المحطة الخارجية لوسط الجزيرة العربية ، كانت المنطقة الممتدة بين معان والجوف ، تمثل فى مجملها ، خطراً مزدوجاً يتمثل فى اللصوص والظمأ من ناحية ، وفى عصابات الغزو والسطو فى حر الصيف ، من ناحية ثانية ، فى حين كانت المسافة التى سنقطعها فى خط مستقيم ، تقدر بحوالى مائتى ميل ، يحتمل أن تطول أكثر من ذلك ، بفعل ظروف خارجة عن إرادتنا ، والسبب فى ذلك أن آبار المياه ، تلك العلامات الأرضية التى يهتدى بها الرحّالة ، والتى يحددون مساراتهم على أساس منها ، لا تكون منتظمة مثل الخطوط الرياضية المستقيمة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ضرورة تجنب المناطق التى تتردد عليها القبائل المعادية ، أو التى تثور من حولها الشكوك ، هى التى تضطر البدوى إلى أن يتخذ لنفسه مساراً دورانياً غير المسارات المعتادة .

زد على ذلك ، أن المجتمع الذى كنا فيه بالفعل ، لم تكن طبيعته تبعث الاطمئنان فى القلوب ، وبخاصة مع مطلع رحلة من هذا القبيل ، وفيما يتعلق برفيقى ، وهو بحق - واحد من أبناء قرية زحلة فى سوريا - فأنا أثق به وأعتمد عليه ، فهو قوى ، وشاب ، ومقدام ، وهو من أبناء منطقة ، تعوَّد سكانها على الأخطار ، فى حين أن الدونية التى ينظرون بها إلى السكان المجاورين لهم تجعلهم أقل تأثراً ، من إخوانهم المواطنين ، بانطباعات الخوف المعتادة التى تنتاب الناس عندما يكونون فى أرض غريبة ، ومع ذلك ، فقد كان رفاقنا من البدو يشكلون مجموعة غريبه بحق : فقد كانوا ثلاثة من حيث العدد ؛ وقد كان زعيمهم سليم العطنة من عرب الحويطات ، تلك القبيلة كبيرة العدد ، النشطة التى تسكن المنطقة الجبلية الممتدة من كيراك KERAK على شاطئ البحر الميت إلى مُعَان . بل أن رفيقنا نفسه كان فرداً من أفراد إحدى العائلات القوية فى تلك القبيلة ؛ فضلا عن كونه أيضاً أحد أقرب الأقارب إلى رؤساء العشيرة ؛ غير أنه خرَّب سمعته وأثار الشكوك من حولها بسبب ارتكابه حوادث السرقة والسلب والنهب مراراً وتكراراً ، إضافة إلى ارتكاب حوادث القتل من حين لآخر ، إلى أن أصبحت سمعته الحالية لا تزيد عن كونه مجرماً وخارجاً على القانون ، فقد كانت بنيته الضامرة وملامحه الداكنة وشفتاه المكتنزتان تعطى انطباعاً بالحزم والجرأة ، فى حين كانت عيناه الرماديتان توحيان بالبرودة والتأمل ، اللذين لا يخلوان من احتمال الخيانة .

وأنا أزيد على ذلك هنا ، أن الصورة الحلوة التى يرسمها الرحّالة من حين لآخر ، لطهارة القصد البدوى وعفته لا تتفق فى جميع الأحوال مع الوقائع الحقيقية التى قد يتمناها المرء ، وعلى العكس من ذلك ، نجد أن أعمال الخيانة التى يأتيها أصحاب الدم البارد لا تشيع أو تنتشر بين هؤلاء البدو الرُّحل : إذ نجد أن الغرباء الذين يحظون بحمايتهم وإرشادهم ، بل حتى إخوانهم المقربين إليهم فى الصحراء ، يكونون فى أحيان كثيرة ضحايا لمثل هذه الأعمال ، ومسألة تضليل الرحّالة ليسيروا على غير هدى فى البيداء إلى أن يصيبهم الإعياء بسبب الظمأ والإرهاق ، وسلب ونهب ما معهم ثم تركهم يموتون فى الصحراء ، مسألة بدوية تحدث مراراً وتكراراً ؛ كما أن الأمثلة على ذلك أكثر من أن نعزوها إلى مجرد المصادفة أو نعدها من قبيل الاستثناء ، وعلى ذلك ، فإن قافلة كثيرة العدد ، كانت تتكون فى معظمها من الأثرياء اليهود ، وهم فى طريقهم من دمشق إلى بغداد، ضيَّعها البدو المرشدون وضللوها ؛ وهلك الرحّالة إلى آخر رجل ، بينما راح مرشدوهم الذين خلت قلوبهم من الأيمان ، يراقبونهم من بعيد إلى أن تأكدوا أن الظمأ والشمس الحارقة قد قاما بعملهم ، ثم عادوا إلى مشهد الموت ونصَّبوا أنفسهم أوصياء على بضائع رفاقهم الذين وثقوا بهم ، وعلى أموالهم المنقولة وعلى ثرواتهم ، وقد صادفت ، أنا بنفسى ، أيام أن كنت فى حائل ، فى وسط الجزيرة العربية ، مؤلفًا عبريًا من الحجم الكبير ، كان ملكًا لواحد من أولئك اليهود التعساء . وقد أحضر البدوى ذلك المُؤلَّف ، الذى جاء ضمن نصيبه من المنهوبات ، عبر هذه المسافة الطويلة ، أملاً أن يحقق ربحًا من خيانته عن طريق بيع كتاب قيم من وجهة النظر الشرقية طالما أنه غير مفهوم .

وعلى كل حال ، وفيما يتعلق بـ سليم العطنة ، ومهما كانت العيوب والنقائص التى فى مظهره أو التى فى تاريخه الشخصى المعروف تمامًا ، فإن إحساسه الطيب وطابعه الرجولى كانا يشكلان أرضية مشتركة لثقتنا فى إخلاصه وولائه لنا فى وضعنا الحالى ؛ فهو رجل شجاع بعيد النظر ، وبغض النظر عن عدم إلتزامه بالمبادئ ، يمكن أن نوليه ثقتنا بقدر معلوم ، ومع ذلك يصعب علىّ أن أقول الشىء نفسه عن رفيقيه على وجوردى ، وهما من بدو الشرارات ، وهما مختلفان تمامًا من حيث المظهر والمخبر ، وهمجيان ، ومتقلبان ، ومتهوران ، إضافة إلى أن مقدرتهما الفكرية كانت ضئيلة وهزيلة شأنها شأن مكوناتها ، والحق أقول : إن سليم العطنة نفسه نصحنا مراراً بتجنب الانفتاح عليهما ، خشية أن يقلل ذلك الانفتاح من الخوف الذى يحسه الرجل غير المتحضر إزاء الرجل المتحضر .

كان زى البدو وتجهيزاتهم للرحلة التى من هذا القبيل عبارة عن : قميص طويل متسخ تماماً ، يصل طوله إلى ما فوق كاحل القدمين ، ومنديل أسود من القطن يضعه البدوى فوق رأسه ، ويثبته بحبل مصنوع من وبر الجمال ، ومشلح بالٍ ، مقلّم بالأبيض والبنى ، وحزام من الجلد ، ردىء الصنعة ، يتدلى منه سكين علاه الصدأ ، وبندقية فتيل مزعجة لها ماسورة طويلة ، ورمح مدبب أطول من البندقية ، وحزام من البارود المكسّر والملصوق إلى بعضه بالخيوط ، كان زى سليم العطنة بهذه الأوصاف نفسها ، اللهم باستثناء أن مكونات الزى كانت من نوعية أفضل .

أما أنا ورفيقى فقد كنا نرتدى زى اثنين من الرّحالة ينتميان إلى الطبقة المتوسطة جاءا من المناطق الداخلية من سورية ، وهذا الزى نفسه هو الذى مررنا به من غزه ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، إلى بلدة مُعَان دون أن يتفحصنا أحد ، أو يستجوبنا أى إنسان من أولئك الذين التقيناهم ، عندما كنا نعبر ذلك البلد الذى أطلق عليه كل من بوكوك POCOCKE، و لابورد LABORDE، ومن جاءوا بعدهما ، اسم ARABIA PETRAEA، إلى حد أنه ليس من الضرورى علىّ أن أورد المزيد من ذلك الوصف ضمن كتابى هذا ، كان الزى الذى كنا نرتديه مكوناً فى بعض أجزائه من قميص خارجى من قماش القنب المصرى ، كنا نلبس من تحته ، وذلك على العكس من رفاقنا من الرحّالة البدو ، سروالا تحتانياً فضفاضاً من القطن الفاخر ، يشيع ارتداؤه فى الشرق ، فى حين كنا نثبت غتره الرأس الملونة بعقال تبدو عليه الأناقة ؛ وجاء الحذاء الجلدى الأحمر الذى يشيع لِبسه فى هذه البلاد مكملاً لذلك الزى .

ومع ذلك ، فقد كانت الإخْراج التى كانت تتدلى على جوانب الجمال ، تحتوى على أزياء أكثر جمالاً من تلك التى كنا نرتديها ، حرصنا أن نخفيها عن أعين البدو ، انتظاراً للظهور بها عندما نصل إلى المناطق العامرة بالسكان، والأكثر تحضراً وتقدماً، كانت تلك الملبوسات الاحتياطية تشتمل على أشياء من قبيل : القمصان الخارجية الملونة ، والكمباز COMBAZ السورى ، ومناديل مقلّمه بالحرير بدلا من القطن ، وأحزمة مصنوعة من قماش جيد وزاهى الألوان ؛ أو بمعنى آخر كل الملابس اللازمة تماماً للحفاظ على تنكرنا، كنت أرتدى زى طبيب وطنى رحّال، أو إن شئت فقل طبيباً دجّالاً ؛ ومن هنا كان لابد من ارتداء الزى الذى يصلح لمهنتى الطبية ويناسبها ، أما رفيقى ، الذى كان ينتحل صفه زوج شقيقتى ، فقد كان يمتهن تجارة التجزئة ، ويتظاهر بأنه

زار هذه البلاد مرارًا ، وفى بعض الأحيان الأخرى كان ينتحل صفة تلميذى أو مساعدى فى مهنه الطب .

كانت المواد الصيدلانية التى نحملها معنا من العقاقير الفاعلة رغم قلة عددها ، وكنا نحتفظ بها فى صناديق صغيرة محكمة الغلق مصنوعة من الصفيح ، ولكنها فى الوقت الراهن ، كانت فى قاع أخْراج[1] الترحال ، وقد بلغ عدد هذه الصناديق حوالى خمسين صندوقًا، تحتوى على ما يكفى لشفاء، أو قتل نصف مرضى الجزيرة العربية ، وقد حذفنا ، بقدر المستطاع ، من قائمة أدويتنا تلك الأدوية ذات الطابع السائل ، وكانت أسباب ذلك الحذف لا تتركز فقط فى صعوبة تداول ونقل هذا النوع من الأدوية فى ظل هذا الأسلوب الوعر ، من أساليب الترحال ، وإنما أيضا بسبب البخر السريع الذى يحدث لهذه الأدوية فى مناخ جاف حارق من هذا النوع ، وللحقيقة أقول أن اثنين أو ثلاثه قوارير من قوارير الأدوية السائلة ، التى كنت أرى أننا سنكون بحاجة ماسة إليها ، سرعان ما تبخرت ولم يتبق فيها أى شىء من الدواء ، اللهم باستثناء البطاقات التى لصقتها عليها توضيحًا لمحتوياتها ؛ لقد تبخرت محتويات تلك القوارير برغم أغطيتها التى لا تسمح بتسرب الهواء ، وبرغم تغليفى لها تغليفاً مزدوجًا ، وأنا أسجل هذا هنا ، من قبيل التذكير النافع لكل امرئ ينوى التنكر فى الزى نفسه ، للقيام بمغامرات من هذا القبيل .

كما اصطحبت معى لاستعمالى الشخصى أيضًا كتابين أو ثلاثة من كتب الطب الأوربية ، الضرورية لممارسة المهنة ، حرصت على إخفائها بعيدًا عن فضول العرب ؛ كما اصطحبت معى أيضًا مقالين من مقالات إيسكولاب ESCULAPE مكتوبين بلغة عربية سليمة، بغية التباهى المهنى من ناحية واستكمالاً لتجهيزاتنا من الناحية الأخرى. كما أخذنا معنا أيضًا ، قدرًا كافيًا من القماش ، والمناديل ، والعقود المصنوعة من الزجاج ، وأطباق الغلايين ، وما إلى ذلك من تلك الأشياء ، لعرضها للبيع فى الأماكن التى لا يروج فيها فن الشفاء من المرض ، وقد ملأنا أخراجنا عن آخرها بالأشياء التى من هذا القبيل ، أخيرًا ، وليس بآخر ، حملنا معنا أيضًا جوالين كبيرين من البن ، كان ملاذ تجارتنا الأخير وأملها الرئيسى يشكل حمولة جمل قوى متين .

(١) واحده : خرج وهو ما يوضع على ظهر الحمار أو الجمل وتوضع فيه الأشياء أثناء السفر أو الترحال (المترجم) .

قد يتعجب القارئ من ذلك الشكل المركب من أشكال التنكر ، بل ربما يصفه تحت أى ظرف من الظروف ، بأنه شكل من أشكال المبالغة والتزيد ، غير أن مثل هذه التجهيزات أو الإجراءات التى تكون مساوية لها ، على أقل تقدير ، إذا لم تكن أمراً ضرورياً تماماً ، فهى مفيدة تماماً لأولئك الذين يودون الترحال الآمن فى وسط الجزيرة العربية ؛ أما الأسباب والمسببات الداعية لذلك فسوف أترك لمجريات الأحداث تفسيرها وتوضيحها ، وإذا ما أخذ القارئ العزيز كلامى مأخذ الصدق فإننى أقول : لولا اتخاذنا لهذه الإجراءات وتلك التجهيزات لما تمتع القارئ تحت أى ظرف من الظروف ، بالقيام بهذه الرحلة العظيمة من خلال هذا الكتاب عن الجزيرة العربية العظيمة ، وهو جالس إلى جوار مدفأته ، بعيداً عن الأخطار التى تَعَيَّنَ على الرحالة أن يمروا بها والمنغصات التى أصابتهم أثناء قيامهم بهذه الرحلة .

وعلى كل حال ؛ لو قدّر لنا ، قبل بداية الرحلة ، أن نعرف الطابع الحقيقى للبلدان التى زرناها ، فلربما استغنينا من ناحية عن جزء كبير من مؤننا وبضائعنا ، التى قصدنا بها أصلاً الاتجار مع البدو ، وزدنا ، من الناحية الأخرى مؤننا وإمداداتنا الطبية التى تصلح كثيراً للريف والحضر ، ولكن ، إذا ما افترضنا ، مثل سائر البشر ، أن الجزيرة العربية تكاد تكون مقصورة على البدو الرحل فقط ، وأن عدد السكان المستقرين لابد وأن يكون صغيراً وغير ذى بال قياساً على عدد سكان البدو ، فذلك يعنى أن الصنف الأول من تجهيزاتنا مهم مثل الصنف الثانى تماماً؛ وهذا خطأ خطير، سرعان ما تبيناه ، والسبب فى ذلك ، أننا بعد أن أنهينا المرحلة الأولى من رحلتنا ، أصبحت المرحلة الثانية منها التى اجتزنا فيها المناطق الداخلية إلى أن وصلنا تماماً إلى شاطئ الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، تمر خلال بلدان لا يمثل البدو فيها شيئاً على الإطلاق ، فى حين ، كان السكان المستقرون بأراضيهم ، ومدنهم ، وزراعتهم ، وحكوماتهم يمثلون كل شىء ، ومع ذلك لابد لنا أن ندرس كل ذلك ونتعلم منه .

والواقع أن مظهرنا شبه التجارى تسبب لنا فى كثير من المضايقات ، فى حين أن مظهرنا الطبى جنبنا الهزيمة الكاملة ، إذ وقع الحادث على النحو التالى :

معان تلك البلدة التى غادرناها منذ وقت قصير ، عبارة عن بلد صغير أو بالأحرى قرية صغيرة ، تقع على جانبى طريق الحج الذى يمتد من دمشق إلى مكة ، مسافة تقدر بمسير ثلاثة عشر يوماً من ناحية دمشق ، ومسير ستة وعشرين يوماً من ناحية مكة .

وقد ورد وصف هذه البلدة في الكتاب الذي كتبه السيد/ والين WALLIN عن الرحلة التي قام بها إلى شمالي الجزيرة العربية ، وعندما وصلنا إلى بلدة معان ، قادمين إليها من وادي العقبة ، في منتصف موسم الحج ، وجدنا حامية تركية صغيرة تحتل البلدة ، وتتمركز فيها طوال أشهر الحج ، لحماية الطريق وتأمينه ، في حين كان سكان البلدة في حالة استنفار واستعداد غير عاديين ؛ وهذه الأمور كلها ، غير مواتية لنا وليست في صالحنا ، نحن الذين كنا نريد أن نفلت من البلدة بهدوء ودون أن يلاحظنا أحد بقدر المستطاع، وبينما كنا ننتظر في بلدة معان طوال عشرة أيام مرهقة، استرعى ظهور المرشدين القادرين على إرشادنا طوال رحلتنا ، انتباه حكام البلدة ، وانتباه الأفنديات الأتراك وانتباه الحامية التركية نفسها ، وجعلهم يراقبوننا عن كثب ، ولم يستطيعوا الوقوف على الأسباب التي جعلتنا نتخلى عن مبيعات رائجة ومربحة في طريق مكة ، وبخاصة في موسم الحج ، إلى مشروع أحمق لا طائل من ورائه ويتمثل في عبور الصحراء الشرقية ، وبناء عليه ومن باب السخرية منا ومن عملنا التجاري ، وبرغم أن تلك السخرية لم تخل من شيء من الشك والريبة ، راح هؤلاء الحكام والمسئولون يبذلون الجهود لإقناعنا بسلوك طريق مكة ، غير أن رفضنا أضحى محرجاً وغير منطقي ، ولن أقول أكثر من ذلك ، ومع ذلك ، توصل الآخرون الذين كانوا يولون فننا ومهارتنا الطبية اهتماماً كبيراً إلى تفسير مفاده أن الهدف الحقيقي وراء إصرارنا على أن نسلك طريق الجوف لابد وأن يكون البحث عن الكنوز المخبأة ، التي لا يعلم متى ومن خبأها سوى الله وحده ، في أعماق الجزيرة العربية ؟ وأن المغامرين المغاربة ، الذين يذيع صيتهم في الطب وفي العلوم الطلسمية ، هم الذين يبحثون عن هذه الكنوز ويعبرون الصحراء من أجلها بين حين وآخر ، وهذه الفكرة هي التي جعلت أصدقاءنا يساندون خطتنا أملاً في الحصول على نصيب من الأرباح المرتقبة ، ويشرعون هم أنفسهم في البحث عن مرشدين جيدين لنا ، لم يكن بوسعنا العثور عليهم بغير مساعدة هؤلاء الأصدقاء لنا ؛ وبذلك أمكن لنا بهذه الطريقة التغلب بسهولة على واحدة من المشكلات المعقدة تماماً ، ولنعد الآن إلى مسيرتنا مرة أخرى .

وبعد أن حملتنا رحلة الخبب السريع التي استمرت عدة ساعات ، إلى مسافة بعيدة عن بلدة مُعَان ، وأخذ احمرار القمر يتلاشى على أثرها من ناحية الغرب ، توقف مرشدونا عند بقعة صغيرة من العشب الجاف في منتصف السهل الصخري الأسود ، وبعد أن تبادلوا معنا كلمات قليلة ، وبركوا الجمال وأنزلوا عنها أحمالها ، وتركوها

ترعى حرة ، تحت سمع وبصر واحد من المجموعة ، على حين نامت بقية المجموعة عدة ساعات بالقرب من أمتعتنا ، التى وضعناها على شكل كومة بالقرب منا ؛ ومع ذلك ، فقد كان النوم مجرد غفوة ، إذ ما أن بزغت أول خيوط الضوء من ناحية الشرق ومن خلف نجوم الصباح الفضية حتى أيقظنا المرشدون لنعيد وضع أحمالنا على الجمال ، ونمتطى صهواتها كيما نستأنف المسير .

وأشرقت الشمس ، ثم شاهدت بعد ذلك ، ولأول مرة ، ذلك الذى أصبح منظراً يومياً ، ألا وهو التعبد اليومى الذى يمارسه البدو فى أراضيهم ، وما أن بدأت أشعة الشمس تظهر عند الأفق ، حتى بدأ رفاقنا البدو الذين ولّوا وجوههم صوب قرص الشمس المشرق ، دون وضوء أو النزول عن ظهور جمالهم ، يتبادلون تلاوة صيغ وابتهالات محددة ، ولم يتوقفوا عن ذلك إلا بعد أن بدى قرض الشمس واضحًا عند حافة الصحراء ، وبرغم أنهم عبدوا الشمس قبل أن يبعث محمد (ﷺ) ، فقد ظلوا كذلك بعد بعثته ؛ كما أن كل ما قاله نبى الحجاز ، أو ما يردده القائمون على شريعته ، عن قرون الشيطان التى تشرق الشمس من بينها ، كما هو معروف أو هو ما يجب أن يعرفه أتباع محمد ، وبرغم عبادة الجن التى تترتب على الصلاة والعبادة ، فى مثل ذلك الوقت ، وفى وضع يتوجه البدو فيه بصلاتهم وعبادتهم صوب رأس الشيطان ، فأن كل ما قيل عن هذه الأمور أُلقِى بكامله على كاهل أولئك المشايعين المتعصبين للأعراف القديمة[1] .

والحقيقة هى أن دين محمد (ﷺ) ، لم يترك لدى السواد الأعظم من البدو الرّحل ، على امتداد اثنى عشر قرنًا سوى انطباع قليل جداً عن الصواب أو الخطأ ؛ الحقيقة هى أن دين محمد (ﷺ) لم يكن له أيضا تأثير يذكر فى هذا الجزء من

(١) ما ذكره المؤلف عن تعبد البدو للشمس أو سجودهم لقرن الشيطان إنما هو تلبيس وتدليس ، حيث أن الثابت تاريخيًا أن الإسلام عم أرجاء الجزيرة العربية ، وأن جميع القبائل دخلت الإسلام سواء كانوا حضراً أم بدوًا وأن ما ذكره المؤلف من التعبد تجاه قرص الشمس إنما هو الصلاة عند دخول وقت الصبح والاتجاه إلى القبلة ، التى غالبًا ما تكون جهة المشرق ، وأن تلك الترنيمات التى ذكرها المؤلف إنما هى التسبيحات والأذكار التى تقال عند الصباح فى كل يوم ويصدق ذلك حديث رسول الله (ﷺ) "أن الشيطان قد يأس أن يُعبد فى جزيرة العرب بعد اليوم" وهذا يدل على انتشار العقيدة الصحيحة فى كل أنحاء الجزيرة العربية فى حياة الرسول (ﷺ) ، وما كان بعد ذلك من انحراف ، فهو ردة وتقصير فى الالتزام بتعاليم الدين الإسلامى (د . حلمى عبد المنعم) .

الجزيرة العربية ، فى مطلع ظهور الإسلام ، وهذا هو ما يخبرنا به القرآن ، وما يقول به الأثر الوثيق ، وليس معنى ذلك أن البدو من جانبهم كانوا ممقوتين من إخوانهم المسلمين أو من الإله الواحد (الله) ، وإنما لأن البدو أنفسهم عجزوا ، ولا يزالون عاجزين ، عن تلقى أو استيعاب أى شيء من تلك التأثيرات المهمة ، أو الصيغ والممارسات الفكرية المحددة التى كانت بمثابة القوالب الأصيلة الخالدة عند مسلمى الحجاز وفى مناطق أخرى كثيرة ؛ والحال هنا يشبه أثر الختم الذى ينمحى بفعل الماء ، فى حين أن الشمع يحافظ عليه ، وهكذا نجد أن اللعنة التى تقول : "ولأنك متقلب مثل الماء ، فلن تتفوق" ، والتى قُصِدَ بها ريوبين REUBEN ، قد حلت بكل معانيها على بدو الجزيرة العربية ، وفى ذات الوقت ، ونظرا لأن البدو كان يحيط بهم المسلمون المخلصون من كل جانب ، أو لأنهم كانوا يعتمدون على هؤلاء المسلمين المخلصين ، فقد رأوا أن من الحكمة أن ينتحلوا بين الحين والآخر اسمًا شقيقًا ورمزًا ، وأن يسموا أنفسهم بأنهم من أتباع محمد فى الوقت الراهن ، بل إنهم كانوا يؤدون أيضًا بعض الصلوات أو الطقوس الإسلامية ، فى الوقت الذى كانوا يحاولون فيه تعلم شيء من هذه الصلوات أو الطقوس ، ولهذه الأسباب نفسها فإن البدو بصورة عامة أكثر حرصًا على الحفاظ على وجود عقيدة وأعمال تتباين تباينًا واضحًا عن العقيدة السائدة فى البلاد ؛ تمامًا مثلما فعل الغجر – رغم أنى لا أعرف إن كان ذلك صوابًا أم خطأ فى أوربا المسيحية على امتداد عدة قرون ، ومن ثم فإن هؤلاء البدو عندما يحسون بالأمان وأنهم فى مأمن من الخوف والكبت والسيطرة يبدءون فى الكشف عن ألوانهم الحقيقية ؛ ويندر على الغريب أن تسنح له الفرصة بمشاهدة البدو فى مثل هذه الظروف ، أما فيما يتعلق بأشباه البدو داخل الأراضى السورية ، أو المصرية أو الحجازية فإن الاختلاط المستمر ، مع البلدان ومع السكان التى تتخذ من الإسلام عقيدة ومذهبًا ، أعطى هؤلاء البدو بدورهم صبغة مميزة أيضًا ، من هنا فإن الحكم الذى أصدره العديد من الرحالة الذين اتصلوا بهذا أو ذاك النوع من البدو ، والذى مفاده أن البدو بصورة عامة هم من أتباع محمد ، مثل بقية المسلمين ، باستثناء البدو المنحلين : هذا الحكم لا ينطبق إلا فى ظل القيود التى أوردناها آنفًا .

يبدو لنا سطح الأرض مستويًا وذا خلفية متجانسة من المسافات البعيدة ، ولكننا إذا فحصناه من مسافة قريبة يظهر لنا ، فى معظم الأحيان ، مكسرًا وليس مستويًا ، كما تظهر أيضًا ألوان عدة فى المنطقة التى لم نكن نرى فيها سوى لونًا واحدًا .

وقد أعلن ، على الملأ ، السيد/ فينلى FINLAY المؤلف المحايد ، صاحب كتاب " الامبراطورية البيزنطية "وليس هناك من وَهْم أكثر من وَهْم الحديث عن وحدة الكنيسة المسيحية" ، وأيا كان الأمر ، فبوسعى أن أثبت انطباق هذا الحكم انطباقًا تامًا على الإسلام فى الشرق ، إذ أن مقدار الانقسام السرى ، والحقد ، وخطأ العقيدة (إذا ما أخذنا دين محمد مقياسًا لنا) والكفر فى الأراضى التى تبدو من الناحية الشكلية داخلة فى عقيدة القرآن المشتركة الواحدة ، أكثر من أى مكان آخر فى العالم ، ومع ذلك سوف يتعين علينا أن نعود إلى هذا الموضوع مرارًا كلما مضينا قدمًا فى هذا الكتاب ؛ ولعلنا نكتفى هنا ببدو الشرارات الذين تجعل من عزلتهم داخل تلك "البرارى السحيقة العاصفة" مثالاً جيداً على جنس من البدو الحقيقيين الخُلَّص .

وفيما يخص بدو الشرارات ، وجدت أنهم جميعًا وبلا استثناء ليسوا أفضل من أى راع من رعاة الماشية الإنجليز الأمناء، فى إلمامهم بصيغ العبادة المحمدية المعتادة ، بكل ما فيها من سجود وتكرار ، بكل وضوئها وطقوسها ؛ وجدت أيضًا أنهم لا يعرفون شيئًا عن الحج ، اللهم باستثناء معرفتهم لأساليب نهب الحجاج ؛ كما وجدت أيضًا أنهم لا يبالون بالتزامات شهر رمضان ولا بفضائل صومه ، ولكن وجدتهم ، من الناحية الأخرى ينحرون الذبائح التى من قبيل الأغنام والإبل على قبور الموتى من أقاربهم ، وأنهم يكررون هذه العملية ، وأنهم يعوضون النقص فى طقوس الإسلام بما يسىء إليه .

زد على ذلك أن رخصة السلوكيات البدوية المبالغ فيها هى التى تجعل منهيات ومباحات الشريعة الإسلامية (المحمدية) فى موضوع الزواج غير ذى بال ولا ضرورة لها ، وأخشى أن يكون الزواج الجماعى ، وليس التعدد ، هو الذى يجسد أحوال الزواج عندهم ، إضافة إلى أن العبارة التى تقول : "إنه لطفل ماهر ذلك الذى يستطيع تعرُّف من أنجبه" يشيع تطبيقها بين هؤلاء البدو ، والواقع أنه فيما يتعلق بموضوع الزواج ، وفيما يتعلق أيضًا بموضوعات أخرى كثيرة تتصل بذات الموضوع ، والتى أرجو من القراء أن يعفونى من الخوض فيها ، وجدتهم يرددون تعبيراً شائعًا بينهم يقول : "الكلاب أفضل منا" على مرأى ومسمع منى ، وأنا هنا أكبرُ فيهم قول الحق، كل الحق ، ولا شىء غير الحق ، وبعد هذه الصورة المبدئية التى رسمتها لحياة البدو وسلوكهم ، والتى سوف استكملها تباعًا ، هيا بنا نعود الآن إلى مسار حكايتنا اليومى .

عندما طالعتنا بعض الأشجار القزمية المتناثرة ، التى تعد علامات على مياه وقباء WAKBA، والتى كنا قد يممنا المسير إليها لم يكن يتبقى على حلول الظهيرة سوى ساعتين تقريباً وكانت الحرارة شديدة جداً ، وبينما كنا على بعد مسافة قصيرة من ذلك المكان ، استحث واحد من البدو المرافقين لنا ، جمله إلى حد الخبب واتخذ لنفسه مساراً دائرياً حتى يتأكد بنفسه من عدم ترصُّد أو اختباء أحد من أفراد القبيلة المعادية، فى المنطقة المجاورة لآبار الماء ؛ ولكن المنطقة كانت خالية من الصديق والعدو، إذ كان المكان صامتاً ؛ وكانت أنقاض القرية المهدمة المهجورة التى تناثرت هنا وهناك على المنحدرات الزلطية وبالقرب من مجرى جاف لواحد من سيول الشتاء ، تبدو كئيبة فى حرارة شمس الظهيرة المتزايدة ، كما توجد فى تلك المنطقة عدة آبار ضحلة ، يكتظ بعضها بالأحجار ، ويعطى بعضها الآخر كمية ضئيلة من الماء قليل الملوحة المختلط بالطين ، وتقع بالقرب من الأشجار الشوكية ، وملأنا من هذه الآبار قرب الماء ، وهى عملية أنجزناها بحرص وإتقان ، لعدم وجود أى مصدر للماء ، على طريقنا ، إلا بعد مسيرة أربعة أيام بأقصى سرعة ممكنة ؛ وهذا اعتبار مهم ، خاصة فى أواخر شهر يونيو .

وبعد أن أنهينا كل هذه الأمور ، ركبنا الجمال مرة ثانية ، ووجهنا رءوسها صوب الشرق من جديد ، بينما رحت أنا أناظر المناظر الطبيعة الشاسعة من حولى ، وهنا بدأت تتراءى لنا سلسلة جبال شرعاء 'SHERAA ، برغم أنها كانت تختفى عن أنظارنا بسرعة نظراً لبعد المسافة ، فى حين كان يمتد على جانبينا ومن أمامنا سهل كئيب من العُدم الأسود الذى يبعث الملل فى النفوس ، لم يكن يحيط بنا من كل جانب سوى بحيرات السراب التى تخدع الأعين وتضللها بحدودها الخارجية الخادعة ، فى حين كانت تتناثر هنا أو هناك صخور البازلت التى كانت تظهر على نحو غير متوقع عبر ذلك السهل المستوى ، وتبدو بفضل انعكاس أشعة الجو الحار كما لو كانت جرفاً هائلاً شديد الانحدار أو جبلاً معلقاً ، أرض الموت الموحشة التى يبدو وجه العدو فيها منجاة وسط هذه العزلة التامة ، ولكن على امتداد خمسة أيام كاملة كانت سحالى السهل ، التى كانت أجسامها تبدو خالية تماماً من أية قطرة من الماء ، وكذلك الجرابيع ، أو فئران الحقل فى الجزيرة العربية ، هى المخلوقات الوحيدة التى كانت تواسى أبصارنا .

ثم تلت ذلك مسيرة ، ربما ندمنا خلالها على القيام بهذه الرحلة ، لو كان للندم نفع أو فائدة، فقد وجدنا أنفسنا يوماً بعد آخر نستحث جمالنا طلباً لسرعتها القصوى، طيلة خمس عشرة أو ست عشرة ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، تحت شمس عمودية من فوقنا ، والتى كان أحباش هيرودوت على حق عندما لعنوها ، ولم يكن على سطح الأرض ولا فى رفاق الرحلة أى شىء يمكن أن يريح البصر أو الذهن ولو للحظة واحدة ، ثم تلت ذلك وقفة قصيرة كى نستريح أو ننام خلالها ، مدة ساعتين أو ثلاث على أكثر تقدير ، سرعان ما كان يتخللها دوى التحذير الذى كان يتردد فى معظم الأحيان ليحذرنا أننا "إذا تخلفنا فى هذا المكان فسوف نموت جميعا من الظمأ" ؛ ثم نعود إلى ركوب جمالنا المجهدة ونروح نستحث خطاها فى جوف الليل البهيم وسط احتمال مستمر بهجوم السلاَّب الجائلين علينا ونهب ما معنا ، أما أنا نفسى ، فقد كنت تحت تأثير حمى رجعية أصابتنى عندما كنت فى بلدة مُعَان ، وبدا ذلك الذى كان يتأرجح بين الإجهاد والروح المعنوية المتدنية ، يتخيل بحق أن الماء الذى كان ينتظرنا هو ماء الموت لنا وماء النسيان لأصدقائنا ، ومرت الأيام كما لو كانت حلماً مليئاً بالهذيان ، إلى حد أننا كدنا ، فى أحيان كثيرة ، نفقد الوعى بالأرض التى نسير عليها وبالرحلة التى نقوم بها ، ولم يظهر عند أقدامنا سوى نوع واحد من العشب ليوحى لنا بشىء من التغيير والحياة ؛ إنه عشب الحنظل المر الصحراوى السام .

وجاء نظام سيرنا على النحو التالى ، فقد كنا نبدأ المسير قبل طلوع الفجر بوقت طويل ، ونستمر فيه، إلى أن تصل الشمس إلى وضع تتوسط فيه الأفق وسمت الرأس ، وهو الوقت المحدد لإشعال النار طلباً لأعداد وجبة الصباح ، وكان البدو المرافقين لنا يحرصون دوماً أن يكون ذلك فى غور من الأغوار الأرضية أو فى مكان منخفض ، حفاظاً منهم على الإخفاء والتستر : أما فى الأمور الأخرى فقد كان لنا مطلق الحرية ، إذ كانت مسألة اختيار رقعة صغيرة من الأرض التى يكسوها الحصى الأسود وشىء من الرمل والحشائش الجافة ، طلباً للمأوى أو الظل أو الأشياء التى من هذا القبيل ، أمراً لا يقبل الجدل أو النقاش فى مثل هذه "الأرض الجرداء" ، وبعد أن أشعلنا النار ، كنت أنا ورفيقى نكدس أمتعتنا على شكل جدار يشكل شبه حاجز يحمينا من أشعة الشمس الحارقة، ونستلقى بجواره فترة من الوقت ، ثم تبدأ بعد ذلك تجهيزات الطهو ، التى تتفق تماماً مع طبيعة المؤن التى نحملها معنا ، والتى كانت غاية فى البساطة وتماثل تلك المؤن الحقيقية التى يتزود بها الرحالة العرب الحقيقيون ؛ كانت تلك المؤن

على وجه التحديد عبارة عن جوال من الدقيق الخشن المخلوط بالملح ، وقليل من التمر ، دون أن يكون هناك صنف ثالث على قائمة الطعام ، ثم أحضرنا بضع حفنات من الدقيق ، عجنها أحد البدو بيديه غير المغسولتين أو بقطعة من الجلد المتسخ ، وصب عليها شيئًا من الماء الآسن الذى فى حوزتنا ثم قام بعد ذلك بتسوية العجين على شكل كعكة كبيرة مستديرة ، يصل سمكها إلى حوالى بوصة واتساعها حوالى خمس أو ست بوصات ، وفى ذات الوقت ، يقوم بدوى آخر بإشعال النار فى شىء من الحشائش الجافة ، وجذور الحنظل ، وروث الإبل الجاف ، إلى أن يصنع من ذلك جمرًا متوهجًا ؛ ثم يلقى بالكعكة بين هذه الجمرات ويغطيها بعد ذلك مباشرة بالرماد الحار ، ويتركها بضع دقائق ، يخرجها بعدها ليقلبها على الوجه الآخر ، ثم يغطيها بالرماد الحار مرة ثانية ، إلى أن تصبح فى النهاية نصفها عجين ، والنصف الآخر نيئ ، وشبه مخبوزة ، وأكثر من نصفها محروقا ، ثم يخرجها بعد ذلك لتقسم على المجموعة الجائعة ، لتأكلها وهى حارة تمامًا قبل أن تبرد وتتحول إلى مادة جلدية تستعصى على الوصف ، تتحدى أشد الشهايا انفتاحًا ، ولم يكن يصاحب هذه الكعكة سوى جرعة من الماء الآسن .

وبعد أن انتهينا من تناول الوجبة ، استأنفنا على الفور مسيرنا من سراب إلى سراب ، إلى أن "قارب على الانتهاء ذلك النهار الذى كان يزداد حرارة على حرارة" ، وقبل غروب الشمس بحوالى ساعة واحدة كنا نترنح ونحن ننزل عن ظهور الجمال ، استعدادًا لتجهيز وليمة المساء التى كانت تمامًا من قبيل وجبة ما قبل الظهيرة ، بل إننا فى أحيان كثيرة كنا نكتفى بالتمر ونصف ساعة من الراحة على الرمال ، خشية أن يلفت إلينا الدخان الصادر عن النار انتباه أفَّاق بعيدٍ عنا ، وأخيرًا نفذ التمر ، مثلما نفذ كيس خبز عيسوب AESOPE (ESOPE) أو بيهاس BEYHAS نظيره العربى ؛ وهنا تحول عشاؤنا إلى ما يشبه عشاء الجنود ؛ ذلك الذى يعرفه أصدقائى من العسكريين ؛ ولم يكن لنا من سرير سوى حبيبات الرمل والحصى، وبعد النوم على الرمل والحصى ، كنا نعاود ركوب الجمال ، ونستأنف المسير فى ضوء القمر أو الاهتداء بالنجوم ، إلى ما قبل منتصف الليل بقليل حيث كنا نستلقى أرضًا لنأخذ قسطًا كافيًا من النوم الذى كنا نعذب به أنفسنا ولا نريح به أجسادنا .

"هل ستواصل المسير معى ؟ " أيها القارئ الكريم ، فى هذه الرحلة العربية ؟ من ناحيتى ، أنا أقر أن تذكرى تلك الحكاية الصغيرة فى الرائعة التى عنوانها "الجمال

النائم" التى كتبها صديق من أصدقائى ، أن أذن لى أن أُسميه بهذا الاسم ، والذى يعنى اقتباسى عنه تسمية له – تلك الحكاية التى لها مغزى رغم أن مؤلفها ينكر ذلك – هى التى قوّتنى وشدت من أزرى فى هذه المناسبة وفى مناسبات أخرى شبيهة بها ؛ إنه "تكرار الفشل ، وتوَحّد النجاح" ، والثقة فى "تنوير شىء عادل" هما اللذان رفعا من روحى المعنوية وشجعانى ، وبذلك يمكن القول بأنى "ربطت هذا الهدف بنهاية مفيدة" ، مع العلم بأن ذلك الهدف لم يكن تماماً ذلك الهدف الذى كان يقصده ألفريد تينيسون TENNYSON . ومع ذلك ، شأنه شأنى تمامًا ، يتعين عليه أن يرهق نفسه فترة من الوقت مرورًا بمصاعب ذلك "الحاجز " HEDGE الصحراوى ، إلى أن يقتحم حاجزًا أخر جميلاً ، مثلما فعل الأمير ، إن لم تخنه شجاعته ؛ إن أشياء أجمل وأحسن تنتظرنا فى الفصول القادمة .

يضاف إلى ذلك التشجيع الذى استجمعناه أنا ورفيقى من الذاكرة ومن بنات أفكارنا ، أن رفاقنا من البدو كانوا يشجعوننا دومًا وفى جميع الأوقات ، بأن راحوا يؤكدوا لنا إنه برغم أن ذلك الأسلوب الترحالى السريع يعد أمرًا ضروريًا تمامًا فى أرض يحيط بها الخطر والجفاف من كل جانب ، إلا أن هناك مسيرات لينة هينة وحرمان أقل فى انتظارنا فور وصولنا التخوم الحدودية لـ ـ طلال بن الرشيد ، عاهل جبل شومر SHOMER . وأضاف هؤلاء الرفاق أن تلك الحدود تبدأ من وادى السرحان VALLEY OF SERHAN، الذى كنا نقترب منه بسرعة ، والماء فيه عذب وغزير ، ويحميه اسم طلال القوى من الأعداء والغزاه ، آناء الليل وأطراف النهار .

أفاض البدو المرافقون لنا فى الحديث عن طلال ، وتحدثوا كثيرًا عن نشاطه ، وعدله ويقظته ، وعن شجاعته العسكرية برغم حديثهم فى الوقت نفسه عن تذمرهم منه لأنه يقمع حرية البدو ، والقيود التى قَيدّ بها حقوق البدو الفطرية فى النهب والسرقة والقتل من وجهة نظرهم هم تلك الشكاوى التى جعلتنا ، على العكس مما قصد إليه الراوى نزيد ولم نقلل من تثميننا لذلك الحاكم ، أيًا كان ، وحتى ذلك الحين ، لم يكن قد توفر لدينا سوى القليل جدًا من المعلومات عن التاريخ الشخصى لذلك الأمير أو مركزه السياسى ، كان يسعدنا أن نعرف إن كانت سلطته أساسية أم ثانوية ، وهل هو مؤسس مملكته أم وارثًا لها ؟ وما مدى وطبيعة المملكة ذاتها ؟ وأشياء أخرى كثيرة ، كنا نود معرفة كل هذه الأشياء وحاولنا الوقوف عليها من كل من على ، وسليم العطنة ،

وجوردى ، ولكننا لم ننجح فى ذلك : والسبب فى ذلك أن أفكارهم ولغتهم كانت مرتبكة ومتضاربة نظراً لأن الأمر كان أكبر من مستواهم ، من هنا ، فإن كل ما استطعنا التأكد منه فى تلك المرحلة ، هو أن ذلك الأمير كان يقيم فى مدينة حائل ، التى تقع فى جبل شومر SHOMER، فى مكان ما ناحية الجنوب الشرقى ؛ وأن هذا الأمير كان قوياً جداً ؛ وأنه لم يكن يسمح داخل مملكته بالسلب أو النهب أو الخروج على النظام العام : وأن كلمته كانت تسرى مسرى القانون فى وداى السرحان من الناحية الجنوبية والناحية الشرقية ، ورأينا فى وضعنا الراهن أن نكتفى بهذه المعلومات على أمل أننا كلما اقتربنا من مملكته زادت معلوماتنا واتضحت أكثر فأكثر .

كنا نعلم فعلا أن وسط الجزيرة العربية، ينتمى فى بعض أجزائه، على أقل تقدير ، إلى الأسرة الوهابية المالكة ، وأنا أحسب أن القراء على علم تام بالاسم "وهابى" ومغزاه العام إلى الحد الذى يعفينى هنا من تقديم تفسير مسبق لهذا الاسم ، وبخاصة أن فصولاً عدة من هذا الكتاب سوف تتناول الأرض والسكان اللذين أعطيا ذلك الاسم شهرة واسعة وصيتًا ذائعًا ، وعن طلال بن الرشيد بصفة خاصة ، وبصفته حاكمًا يرتبط بالوهابية بشكل أو بآخر ، سمعت ذلك يتردد ولكن بصورة غامضة وغير واضحة فى كل من سوريا ودمشق ؛ حيث كان البعض يميزونه عن الأسرة المالكة فى نجد ويخلط البعض الآخر بينه وبين الأسرة نفسها . وعليه جمعنا بين هذا وذاك ، وتوصلنا إلى أنه لابد أن يكون حاكمًا تابعًا ، أى حاكمًا إقليميًا ، نائبًا عن الحاكم الوهابى ؛ وهذا نوع من الحدس ، لم يكن يمثل سائر أنواع الحدس الأخرى ، صائبًا تمامًا أو خاطئًا تمامًا .

كان اليوم يوافق الثانى والعشرين من شهر يونيو ، أى اليوم الخامس من تاريخ مغادرتنا منطقة أبيار وقباء ، ولم يكن الماء المتبقى فى القرب الجلدية والتى زادت فيه نسبة الطين ، يكفى لإطفاء ظمئنا ، ولم تظهر حتى الآن دلائل الحصول على كمية جديدة من الماء ، وأخيرا وصلنا ، قبيل الظهر إلى بعض الهضاب الصغيرة التى تتكون من الزلط والحجر الرملى ؛ وإلى اليمين منا تشاور البدو المرافقون لنا مع بعضهم بعضا برهة قصيرة ، غيروا بعدها مسارهم ومسارنا إلى نفس الاتجاه ، ونادانا سليم قائلا : "تشبثوا بالجمال لأنها سوف تفزع وتدور حول نفسها ، ولم أفهم الأسباب التى تجعل الجمال تفزع وتدور حول نفسها ؛ فقد شاهدنا أثناء عبورنا الجبال التى ورد

ذكرها خمسا أو ستًا من الخيام السوداء ، من النوع الفقيرة جدًا والمتواضع تمامًا ، نصبها أصحابها بالقرب من بعض الأبيار المحفورة في التجويف الزلطي في الأرض المنخفضة عن هذه الخيام ، وهنا بدأت تتضح أسباب التحذير الذى أطلقه سليم ، إذا بدأت جمالنا السخيفة ، بعد أن أبصرت الخيام ، كما لو كانت لم تَرَ شيئًا من هذا القبيل قط قبل ذلك ، بدأت الجمال تعدو هنا وهناك ، وتروح هنا وتروح هناك ، إلى أن تسبب نخعها (لأن ركوض الجمل يشبه ركوض البقرة) وضحكنا ، فى فشلنا فى البقاء على ظهورها ، وهنا سرعان ما تغلب ظمأ الجمال على ألفتها ، فتركت مزاحها وراحت تقترب من حافة البئر وتتشمم ما به من ماء .

وشببنا النار ، وسرعان ما اقترب منا سكان الخيام ، وهن عدد من النسوة يعددن على أصابع اليد الواحدة ورجل أو اثنان من كبار السن ، وكلهم ينتمون إلى قبيلة الشرارات ، التى تنتشر فى أنحاء هذه الصحراء ، اقتربوا منا ليقولوا لنا "مرحبًا" و"يا هلا" إلخ كل هذه العبارات ، وليسألونا أيضًا عن أسباب رحلتنا والمكان الذى نقصده ، ولم يكن فضولهم هذا بدون مبرر ؛ والسبب فى ذلك أن المسار الذى سلكناه إلى هذا المكان لم يكن مطروقًا فى أى وقت من الأوقات ، وبخاصة القادمين من دمشق أو من المنطقة المجاورة لها ، فقد دلت ثيابنا ولهجتنا على أننا من دمشق ، وفى هذه الفترة من ذروة الصيف ، غير أننا كنا قد بلغنا من التعب والإرهاق مبلغًا لم نستطع معهما التحدث كثيراً عن هذه الأمور ، وكنا نبحث عن قليل من الظل كى نستظل به بعد هذه المسيرة الطويلة ، بدلاً من حديث مستفيض عن أسباب الرحلة ومقاصدها ، وعليه ، تركنا البدو المرافقون لنا لحال سبيلهم ، فقد كانوا هم أيضًا مهدودين من التعب والإرهاق ، وراحوا يسحبون الماء من البئر بطريقتهم الخاصة ويسكبونه فى التجويف الصغير المجاور للبئر كى تشرب منه جمالهم ، ولو شاركنا فى هذه العملية لكنا قد عطلناها بدلاً من المساعدة على إنجازها ؛ وبعد الاستئذان والموافقة ، دخلنا خيمة صغيرة ضيقة كان الهدف من أغطيتها السوداء هو استبعاد الضوء ومنع انتقال الأشعة المتولدة عن حرارة الظهيرة ، وداخل الخيمة استلقيت أنا ورفيقى على الرمل إلى أن يحلوا لرفاقنا البدو أن يجيئوا إلينا ويجبروننا على النهوض ، وقد حاول الأخساَّء أن يجبرونا على النهوض بعد فترة قصيرة جداً غير أننا أجبناهم ، أننا طالما أصبح لدينا كمية كافية من الماء ، وطالما اقتربنا ، أو كدنا نقترب ، من تخوم ابن الرشيد الحدودية فليس هناك ما يدفعنا إلى مثل هذه العجلة وهذا التسرع ، ولما كان

سليم متفتحًا فقد سلَّم بقوة الأسباب التى أوردناها ، وبقينا داخل الخيمة إلى أن غابت الشمس وبدأ النسيم العليل ، وفى ذات الوقت أتحفتنا صاحبة الخيمة ، تلك العجوز القبيحة الشمطاء طيبة القلب ، شأنها فى ذلك شأن غالبية البدويات بخطبة انتقادية لاذعة عن استبداد ابن الرشيد ، والقهر الذى كان يمارسه على أبناء بلدها ، خلصنا منها إلى أن ابن الرشيد كان يؤدى ذلك الذى يكون مفروضًا على ملك يحب النظام ، ومن هنا ازدادت قيمته فى نظرنا .

وعندما استأنفنا مسيرنا فى المساء اكتشفنا تغير شكل الصحراء العام إلى حد ما إذ بدأت تظهر على سطح الصحراء الأسود بقع كبيرة من الرمال والحشائش ، التى تزايدت أعدادها وأحجامها مع استمرار مسيرنا ، وفى اليوم التالى ، الموافق الثالث والعشرين من شهر يونيو ، زاد وضوح العلامات التى توحى باقتراب وصولنا إلى وادى السرحان ، وعندما اتجهنا صوب الشمال حتى يتسنى لنا الدخول إلى وادى السرحان شاهدنا عن بعد سلسلة من التلال الزرقاء ، تمتد من الغرب إلى الشرق ، وتشكل جزءًا من البيداء السورية العربية ، وأَعْلَمُ جيدًا إنها لم ترد ضمن الخرائط الأوربية ، وربما كان السبب فى ذلك هو عدم اكتشاف ذلك الجزء ، أو بسبب عدم اكتشاف ذلك الجزء ، أو بسبب عدم استكشافه تمامًا على أقل تقدير ، وراحت ، فى الوقت نفسه ، البقع الرملية تتزايد من حولنا فى كل اتجاه كما راح البدو المرافقون لنا يمنون أنفسهم بالوصول إلى وادى السرحان قبل حلول الليل .

ومع ذلك ، وقع عند هذه المرحلة من الرحلة ، حادث كاد أن ينهى على الرحلة والرَّحَّالة على حد سواء ، و لا بد أن يكون القارئ ، قد قرأ مثلما قرأت أو سمع مثلما سمعت قصصًا كثيرة عن ما يسمى بالسَّمُوم ، أو تلك الريح الصحراوية المميتة ، ولكن بالنسبة لى لم يحدث قط أن واجهتها وهى فى كامل قوتها وعنفوانها ؛ ولم يحدث قط أن واجهتها فى شكلها المعدل ، أو فى مرحلة الشلوك ، كما يقول المصطلح العربى ، معنى ذلك أن الشلوك هذه هى الريح الحارة المزعجة التى تهب على البيداء السورية ، وبرغم أن هذه الريح مزعجة بما فيه الكفاية إلا أنها لا تدخل فى عداد الرياح الخطرة ، من هنا فقد آثرت تسجيل الحكايات التى حكاها أصحابها عن الظواهر الغريبة والآثار المميتة، التى تترتب على هذه "العاصفة المسمومة" ضمن حكايا الكثبان الرملية المتحركة ، التى ورد ذكرها فى كتب تتسم بالطابع التاريخى أكثر من كتاب "THALABA".

وعندما كنت استفسر من أولئك البدو الذين كانوا يشاركون فى أرتال اجتياز الحدود أو فى القوافل التى تجوب الرمال ، عن مثل هذه الحكايات ، كانوا ينفجرون فى الضحك ، ويقولون : إنه باستثناء العواصف الترابية الطارئة ، التى تشبه تلك العواصف التى يندر ألا يواجهها أى إنسان يزور بلاد السند SINDE فى فصل الصيف فإن الجزيرة العربية لا يهب عليها أى نوع من أنواع الرياح الرومانسية التى كنت ألح إليها ، ولكنى عندما كنت أسألهم عن تاريخ السموم ، كانوا يأخذون الأمر ، دومًا ، مأخذ الجد ، وهاهو ما نحن فيه الآن .

كان الوقت قبيل الظهيرة ، وما أدراك ما الظهيرة أيام الصيف تحت سماء الجزيرة العربية الخالية من الغيوم ، وفوق الصحراء المحروقة ، عندما بدأت تهب فجأة عصفة ريح حارقة على شكل نوبات متقطعة ، من ناحية الجنوب ، وراحت كثافة الهواء ووطأته تتزايدان لحظة بعد أخرى ، إلى أن بدأت أسأل رفيقى ويسألنى عن معنى ما يدور من حولنا ، وما يمكن أن يترتب عليه من نتائج ، واتجهنا بأسئلتنا إلى سليم العطنة الذى كان قد لف وجهه بالفعل فى عباءته وانحنى إلى الأسفل منكفئًا على عنق جمله ، ولم يجبنى ولو بكلمة واحدة ، وكان زميلاه من بدو الشرارات ، قد اتخذا وضعًا مماثلاً والتزما الصمت تمامًا . أخيرًا ، وبعد أن عاودت السؤال مرارًا أشار سالم بدلاً من أن يجيب على سؤالى بطريقه مباشرة ، إلى خيمة صغيرة شاءت العناية الإلهية أن تكون أمامنا وبالقرب منا ، ثم قال : "حاولا الوصول إلى هذه الخيمة ، لأننا إن أفلحنا فى الوصول إليها سنكون من الناجين" ، وأضاف قائلاً " "انتبها ولا تدعا جمليكما يتوقفان ويبركان" ؛ وراح يكيل لجمله العديد من الضربات ، ثم لفَّه صمتٌ رهيبٌ .

ونظرنا بلهفة إلى الخيمة ؛ وكانت لا تزال تبعد عنا بحوالى مائة ياردة أو ما يزيد على ذلك ، وازداد ، فى الوقت نفسه ، عصف الريح حرارة وعنفًا ، ولم نستطع حث جملينا على المضى قدمًا إلا عن طريق محاولة ذلك مرارًا وتكرارًا ، وسرعان ما تحول لون الأفق إلى اللون البنفسجى الداكن ، وبدى وكأنه يطبق علينا من كل جانب مثل الستار ؛ فى حين بدأت تهب ، فى الوقت نفسه ، خلال هذا الجو الكئيب عصفة خانقة ، كما لو كانت صادرة عن فرن هائل انفتح فجأة فى طريقنا ؛ وبدأ جملانا أيضًا ، برغم كل المحاولات التى بذلناها يدوران من حول نفسيهما ويثنيان ركبهما استعدادًا للبروك . لقد أطبقت علينا ريح السموم .

وكان من الطبيعى أن نحذو حذو العرب الذين كانوا يرافقوننا بأن غطينا وجوهنا ، ورحنا أيضًا نستحث جمالنا عن طريق الضرب والركل إلى أن أجبرناها على المضى قدمًا صوب الملجأ الوحيد الذى فى متناولنا ، وقد بلغت ظلمة الجو ، والحرارة الحارقة حدًا هُيِّئ لنا عنده أن جهنم قد بزغت من الأرض ، أو هبطت علينا من السماء ، ومع ذلك وصلنا الملجأ المنشود فى الوقت المناسب ، وفى اللحظة التى بدأت العصفة السامة تحيط بنا فى أسوأ مراحلها ؛ وعندها كنا جميعًا ساجدين داخل الخيمة ، وقد لففنا رءوسنا ، ونكاد نموت خنقًا ، ولكنا كنا فى مأمن من تلك الريح ؛ بينما كانت جمالنا ترقد خارج الخيمة وكأنها قد نفقت ، وهى تفرد أعناقها الطويلة على الرمل فى انتظار مرور العاصفة .

كان بداخل الخيمة عندما دخلناها أول مرة امرأة بدوية عجوز وحيدة ، كان زوجها يرعى إبله فى وادى السرحان ، وعندما أبصرت تلك المرأة العجوز خمسًا من الرجال المتأنقين ، مندفعين إلى داخل منزلها دون استئذان أو تحية ، كان من الطبيعى تمامًا أن تطلق صرخة تعبر عن الاستغاثة من القتل ، أو الحريق أو السرقة ، وأنا لا أعرف شيئًا آخر غير ذلك ، وسارع سليم إلى طمأنة العجوز بأننا "أصدقاء" ، ثم ألقى بنفسه على الأرض دون أن يلفظ كلمة أخرى ، وحذى الجميع حذو سليم فى صمت .

وبقينا على ذلك الوضع مدة عشر دقائق شعرنا خلالها بموجة حرارية ، تمر من فوقنا مثل تلك الموجة الصادرة عن الحديد بعد أن يُسخن إلى درجة الاحمرار ، ثم بدأت جدران الخيمة تترجرج على إثر عصفات الريح العائدة ولتعلن لنا أن أسوأ مراحل ريح السموم قد انتهت ، ونهضنا على أقدامنا ، وكاد يقتلنا الإرهاق والإعياء ، ورفعنا الأغطية عن وجوهنا ، وبدى رفاقى كما لو كانوا جثثًا وليسوا أحياءً ، ومن المسلم به أننى كنت على الحال نفسه ، وعلى كل حال ، لم يكن بوسعى ، رغم التحذيرات ، أن أمتنع عن الخروج وألقى نظرة على الإبل ؛ التى كانت لا تزال مستلقية على الأرض كما لو كانت قد قتلت رميًا بالرصاص ، كان الهواء لا يزال مُغْبرًا ، غير أنه صفى مرة ثانية بعد فترة قصيرة وعاد إلى حاله التى كان عليها قبل العاصفة . كانت فترة هبوب ريح السموم خالية تمامًا من الرمل والغبار ؛ إلى حد أننى لا أعرف الطريقة التى أستطيع بها تعليل هذا التناقض الفريد .

أما عن مضيفتنا ، وبعد أن تخلصت من قلقها ، وانتهت مخاوفها ، التى لم يكن لها ما يبررها ، فقد ظلت بلا حراك فى ركن من أركان الخيمة وهى مغطاة تماماً ، إلى أن انتهت عاصفة السموم ، واستغلت العجوز فصاحة لسانها ، فى أن تقدم لنا أفضل دليل على أن عاصفة السموم قد انقضت دون أن تخلف ورائها عرض من أعراضها ، وراحت أيضاً تشبع فضولها الشديد نحونا بعد التحفظ الذى فرضته عليها ظروف دخولنا الخيمة أول مرة ، ثم استأنفنا مسيرنا فى ساعة متأخرة من المساء ؛ ثم دخلنا ، فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، وادى السرحان ، الذى أدخلنا فيه الكثير من التعديلات على طابع الرحلة التى كنا نقوم بها ، وقد يكون من المناسب ، قبل أن أروى ما حدث لنا فى ذلك الوادى ، أن أقول شيئاً عن الموقع العام لذلك الوادى وخصائصه ، وعلاقاته النسبية مع الصحراء التى تحيط به ، هذا لا يعنى أن وادى السرحان ليس معروفاً للجغرافيين أو الرَّحَّالة ، وإنما هناك بعض التفاصيل الخاصة بهذا الوادى ، وبخاصة فى فرعة الجنوبى ، التى يهم القارئ العادى أن يعرفها ويقف عليها ، ويجب ألا يغفلها البحث العلمى إغفالاً تاماً .

هناك حزام صحراوى واسع يمتد من جنوب البيداء السورية ، ويسير بمحاذاة المنطقة المجاورة للبحر الميت إلى أن يصل إلى وادى نهر الفرات ، وتتشابه أوصاف الجزء الأكبر من ذلك الحزام ، مع تلك الأوصاف التى أوردناها عن ذلك الجزء الذى عبرناه من الصحراء ، فالتربة فى هذا الجزء قاسية وصخرية ، تتخللها بعض مصادر الماء الذى يصل إلى سطح الأرض ، حتى فى فصل الشتاء ؛ وفى فصل الربيع تنبت فيه الحشائش والأعشاب على شكل بقع متناثرة ، ولكنه يكون جافاً تماماً فى فصلى الصيف والخريف ؛ وأرض هذا الحزام مستوية بشكل عام ، ورتيبة وجرداء ، وترى فى هذا الحزام صخرة منعزلة هنا أو هناك ، أو مجموعة من التلال الخفيضة ، وقد نشاهد فى أحيان نادرة جداً سلسلة مستمرة من الارتفاعات الضئيلة ، المحددة المعالم الخارجية ، والتى تتخلل ذلك الحزام الصحراوى ، هذا هو القطاع الشمالى من تلك الحلقة الصحراوية التى تحيط بالجزء الأوسط من الجزيرة العربية ، وهذا هو ما يجعل الاتصال المعتاد صعباً بين ذلك الجزء والأراضى المجاورة له فى كل من سوريا وبغداد ؛ وهذه الحلقة الصحراوية هى التى تعزل وسط الجزيرة العربية عن المناطق البحرية مثل الحجاز ، واليمن ، وعُمَان ، وإذا ما توغلنا جنوباً نجد أن هذه الحلقة الصحراوية ، برغم استمرارها ، تتخذ شكلاً مختلفاً ، ولكننا سنتكلم باستفاضة عن

ذلك الجزء ، في مرحلة لاحقة من هذا الكتاب ، عندما يحين أوان اجتيازنا لمواضعه التي تقع على طريقنا .

وعلى أية حال، فإن الصحراء الشمالية ، التي هي محط اهتمامنا في هذه المرحلة، تحتوي ، برغم قفرها وجدبها ، على بعض المناطق الحظيظة نسبياً ، إذ الماء فيها غزير والحياة النباتية وفيرة ، وتشكل هذه الأماكن أفضل المنتجعات عند البدو ، كما تستعمل هذه الأماكن أيضًا في تحديد المسارات المعتادة التي يسلكها مختلف الرحَّالة سواء أكانوا تجاراً أم لدوافع أخرى ، وأولئك الذين قد يخاطرون بعبور هذه البرية ، هذه الواحات ، إن كانت تستحق بحق أن نطلق عليها هذا الاسم ، تكونت نتيجة انخفاض طفيف في سطح الصحراء المحيطة بها ، كما تشكل في بعض الأحيان وادياً طويلاً ، أو إن شئت فقل رقعه من الأرض بيضاوية الشكل، تنعدم فيها التربة الزلطية والرملية ، لتحل محلهما تربة مختلطة بالرمل ، وتخفي تحت سطحها مقداراً كبيراً من الرطوبة على بعد مسافة قريبة تحت الأرض ، ونتيجة لذلك تنبت في هذا الوادي الأجمات ، والحشائش ، والأعشاب ، كما أن فترة اخضرار الحشائش هنا ، إذا لم تكن على مدار العام فإنها أطول منها في أي مكان آخر ؛ كما تنمو في هذا الوادي أيضا بعض النباتات المثمرة ، من الأنواع التي تفي باحتياجات البدو الحياتية الهزيلة ، وهذه الأشجار تنمو تلقائياً في هذا المكان ؛ خلاصة القول ، إن الإنسان والحيوان لا يجدان العيش الوفير وإنما الضروريات التي تحفظ عليهما الحياة ، هذا هو وادي السرحان ، ومعنى هذا الاسم الحرفي هو "وادي الذئاب" ، الذي ربما أطلق عليه هذا الاسم نتيجة تقليد قديم مفاده أن الذئب كان الحيوان الرئيسي في ذلك المكان ، ولكن يبدو أن الأصل الدقيق لهذا الاسم ربما اندثر مع الكثير من ماضي العرب ، هذا المنخفض المتعرج الطويل يمتد في الأصل ، من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، أو ما يشابه ذلك ، ويعبر نصف الصحراء الشمالية على شكل سلَّم طويل تقع رأسه بالقرب من البصرة في الحوران HOWRAN، على بعد مسافة قصيرة من دمشق ، بينما ترتكز قاعدة السلم على الجوف، الذي يعد منطقة تمهيدية ومدخلاً إلى وسط الجزيرة العربية ، من هنا ، يجيئ وادي السرحان بمثابة الطريق المعتادة للأعمال المالية والتجارية المعتادة التي تتردد بين كل من سوريا والجوف ، زد على ذلك ، أن قبيلة بدو الروالة السورية العربية كبيرة العدد تسكن الطرف العلوي من ذلك الوادي ، في حين يسكن عرب الشرارات الجزء الأوسط والجزء الجنوبي الشرقي ، ويكاد يكون مقصوراً عليهم .

وليس فى هذا الجزء من البلاد أى وادٍ آخر يماثل ذلك الوادى فى الطول ، أو فى الخصوبة ، باستثناء الجدب والقحط الشديد ، فالماء متوفر فى كل انحاء وادى السرحان ، وعلى عمق يتردد بين عشرة وعشرين قدمًا ، والحياة النباتية وفيرة ومتنوعة فيه .

من هنا نبدأ أو بدأت ، أن صَحَّ التعبير ، أيام أن قمنا برحلتنا ، ممتلكات طلال ابن الرشيد ، أمير شومر SHOMER الذى يمتد نفوذه ويفرض اسمه الاحترام بل الخضوع على الصحراء كلها بدءًا من وادى السرحان في اتجاه الشرق ، وعلى امتداد الوادى بكامله ، إضافة إلى نزاع على اللقب فى الناحيتين الغربية والشمالية . إذ برغم أن هذه الإحراج التى لا تزيد على ما أطلق عليه اللورد بايرون BYRON اسم المحيط ، تستعصى على كل محاولات الإنسان لاستصلاحها أو التغيير من طبيعتها ، إلا أن أجزاء هذه الإحراج التى تجاور مراكز السلطة والحكم المنظم قد تُغَيِّر ، بل تُغَيَّر فعلاً من وضعها ، على نحو أو آخر ، حتى تسير فى ركب الحكومة المتحضرة ، شأنها فى ذلك شأن أى جزء من البحر يكون مجاورًا لساحل من السواحل القوية عندما يختار الانضمام إلى هذا العلم أو ذاك ، الذى يجبر السفن الحاملة له على احترامه ؛ اللهم إلا إذا بلغت تلك السُّفُنُ من القوة مبلغًا يُمَكِّنها من قبول التنازع وتحمُّله ، والحال هنا هو حال البدو الذين ولدوا على "سفن الصحراء" التى تسبح فوق هذه اليابسة التى تشبه بحرًا هائلاً ؛ وعليه ، يستطيع طلال بن الرشيد ، من خلال الجوف وحاكمه أن يجبر البدو على الرضوخ لأوامره فى كل أنحاء النصف الجنوبى من وادى السرحان والمناطق المتاخمة له .

دخلنا وادى السرحان فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو ، وسعدنا عندما وجدنا أنفسنا على الطريق السريع – برغم أن هذه العبارة لا يمكن أن تنطبق على أرض لم تعرف الطريق مطلقًا ـ المؤدى إلى الجوف : فى حين راح البدو المرافقون لنا ، والذين سئموا مثلنا أكل التمر وخبز الجمر ، يمنوننا بأوصاف الكرم الحاتمى الذى سنلقاه يوميًا ونحن فى وادى الذئاب .

والواقع أننا ما أن دخلنا منطقة التلال الرملية التى تتناثر هنا وهناك فوق هذه الأرض الخفيضة ، حتى بدأنا نشاهد بين الحشائش عن قرب وعن بعد ، عديداً من الخيام السوداء مضارب أهل كيدار ، التى كانت تشبه وبلا أدنى شك ما كانت عليه تلك

المساكن عندما شبهها سليمان SOLOMON (عليه السلام) بعروسه المصرية صاحبة البشرة الداكنة ، (رغم أنى لا أعـرف إن كانت العروس المصرية تعد هذا التشـبيه أو لا تعده من باب المجاملة) ، غير أن مظهر هذه الخيام بلغ من البؤس والشقاء حداً جعلنا نشك فى صدق "حكايات" الكرم "الخرافية" التى حكاها لنا البدو الذين كانوا يرافقوننا ، والحقيقة ، أن عرب الشرارات هم أفقر فقراء القبائل البدوية المترحلة التى تسكن الجزيرة العربية ، إذ ليس لديهم سوى أعداد قليلة جداً من قطعان الأغنام ؛ زد على ذلك أن وجود حصان فى القبيلة يعد أمراً نادراً ؛ وتتمثل كل ثروة كل هؤلاء البدو ، إذا اعتبرنا ذلك ثروة ، فى الإبل ، التى لا يحتاجها الناس ؛ وذلك على العكس من بدو الشمال ، من أمثال السبّاع ، والرواله ، والفظعان FIDHA'AN، وإخوانهم ، الذين تتزايد قطعان أغنامهم وأعداد خيولهم بشكل يتمكنون معه من الاتجار بها ، الأمر الذى يجعلهم يحيون حياة المخلوقات المتحضرة تماماً أو فى مأمن من الحرمان والشقاء اللذين تنطوى عليهما الحياة البدائية تماماً ، المصير الحزين لأصدقائنا الجدد ، عرب الشرارات .

وعرب الشرارات الذين ينتشرون فى كل أنحاء ذلك الحزام الصحراوى الذى أتينا على وصفه ، والذين يتخذون من وادى السرحان مكاناً معتاداً يتجمعون فيه ، ليس لهم شيخ يعترفون به ، ولا زعيم أو رئيس ، وهؤلاء العرب ينقسمون إلى جماعات أصغر فأصغر لكل منها رئيس مستقل جدير برعاياه من جميع النواحى ، وعلى كل حال ، فقد أمكن مؤخراً تجميع هؤلاء الشيوخ ورءوساء العشائر فى إطار شكل الإذعان والخنوع بفضل ذراع طلال بن الرشيد الحديدية ، وهم يدفعون له جزية سنوية من الإبل ، ويتذمرون منه يومياً ، ومع ذلك فان المقابلات التى على وشك أن نبدأها مع هؤلاء البدو الرحل سوف توضح لنا طبيعتهم وظروفهم أكثر فأكثر .

وبينما كنا نتجاوز خيمه إثر أخرى ، مخلفين وراءنا بدواً كثيرين يرتدون أسمالاً بالية ، ويرعون الإبل ، حدد لنا سليم العطنة SALEM فى النهاية مجموعة من المنازل ، كان من بينها منزلان أو ثلاثة أبعادها أكثر بكثير من أبعاد المنازل الأخرى ، وقال لنا : إن عشاءنا فى تلك الليلة (ذلك أن فترة المساء كانت قد قاربت على الانتهاء) سيكون على حساب هذه المنازل ، وأردف قائلاً ، تشجيعاً لنا على الاستقبال الأنيق المرتقب : "أجاويد" . وبطبيعة الحال ، لم يكن أمامنا سوى أن نذعن لما قاله سليم SALEM :

وخلال دقائق معدودة أصبحنا جنباً إلى جنب مع الحراس السود الذين يحتمون بأغطية مصنوعة من شعر الماعز الأسود ، التي يعيش تحتها المضيفون المرتقبون .

وظهر لنا الرئيس أو الرؤيس ، لأنه لم يكن يزيد على ذلك ، وتبادل مع سليم SALEM بعضاً من الكلمات الموجزة المحددة ، وعاد إلينا سليم حيث توقفنا إنتظاراً لعودته، واقتاد إبلنا إلى مسافة قريبة من الخيمة ، وأبركها فى ذلك المكان ، وساعدنا على إنزال أحمالها عنها ، وعندما اخترنا لأنفسنا مكاناً على منحدر رملى يواجه مضارب القبيلة ، أوصانا سليم بأن نحرص في مراقبه متاعنا ، إذ ربما يوجد لصوص أو نهّابين بين مضيفينا لأنهم جميعاً "أجاويد بحق" ، وهذا خير سيئ ؛ والسبب فى ذلك أن كلمة "أجاويد" على لسان العرب تســاوى على وجه التقــريب الكلمة الــدالة على "السيد أو الماجد" GENTLEMAN فى اللغة الإنجليزية ، وهنا نقول : إذا كان السادة أو الأماجد لصوصاً فماذا يكون الحراس السود ؟ ووضعنا أعيننا على متاعنا ، ثم جلسنا على الرمل جلسة توحى بالرزانة والوقار ، انتظاراً للنتائج التى ستسفر عنها المفاوضات التى يجريها دليلنا سليم مع الحراس السود .

وبقينا لوحدنا فترة من الوقت ، برغم أن من حولنا كانوا يراقبوننا ، فقد تجمعت مجموعة من العرب حول رفاقنا عند باب الخيمة ، وشغلوا أنفسهم بالحصول منهم على أكبر قدر ممكن من المعلومات ، التى تخصنا وتخص متاعنا بصفة خاصة ، ذلك المتاع الذى كان فى آخر المطاف محطاً للفضول ، ولا أقول الجشع ، وجاء دورنا بعد ذلك ، إذ حضر الرئيس، وأسرته (باستثناء النساء) ، وأتباعه المقربون ، ومعه عشرون آخرون ، من الشباب ومن كبار السن ، ومن الصبية والرجال ، وبعد تقديم التحية ، على طريقة البدو ، نظراً لأنهم لا يعرفون ولا يقدمون التحية على الطريقة التركية أو الطريقة الفارسية التى دخلت إلى أماكن أخرى ، حضر الرئيس ومن معه وجلسوا أمامنا على شكل شبة دائرة ، كان كل واحد منهم يمسك فى يده مشعاباً قصيراً يستعمل فى قيادة الإبل ، كى يومئ به أثناء الكلام ، أو يتلاعب به خلال فترات المحادثة ، فى حين كان الشبان الصغار أقل تعجلاً فى الخطاب وراحوا فى أدب يستثمرون وقت فراغهم فى إطالة النظر إلينا وإصاخة السمع لحديثنا ، أو التقاط كريات الأوساخ من بين حبات الرمل ثم يلقون بها حولهم .

ولكن كيف لى أن أصف حديث هؤلاء البشر ، وأسئلتهم وإجاباتهم ، وسلوكياتهم ونكاتهم ؟ وقد سمعت غريباً وقوراً من بلدة حمص السورية ، تلك البلدة التى يضرب

بغباء سكانها الشديد المثل ، سمعت هذا الغريب الوقور يقول : "العاقل فى هذه المدينة شأنه شأن رجل رُبِطَ بين قطيع من البغال داخل الإسطبل ؛ ولكن الضيف بين بدو الصحراء ، الذين يفتقرون إلى مزايا الإسطبل ، يشبه رجلاً وُضِع فى وسط حقل بين بغال سائبه تمرح وترفس بأرجلها من حوله فى جميع الاتجاهات" ، هنا يمكن لنا أن نعرف الطبيعة البشرية فى أحط مراحلها ، أو نراها عن قرب تماماً ؛ فمن هؤلاء البدو من يتمدد باسطاً ذراعية وقدميه على الرمل ، وهذا آخر يرسم بمشعابه ، على الرمل ، خطوطاً لا معنى لها أو خارجة عن الموضوع ، أو يلقى نكاتاً يظن إنها ظريفة وفكهه ، ولكنها بذيئة للغاية فى واقع الحال ، وفى الوقت نفسه ، تجد الصبية يندفعون إلى الأمام بدون أى ضوابط ويقطعون على الكبار حديثهم ، ولا يمكن أن أقول كبراءهم - دون أدنى اهتمام أو توقير .

وهم لا يرون فى كل ذلك أى دليل على الوقاحة ، أو أى قصد لمضايقة الغير ؛ وإنما العكس هو الصحيح تماماً، فهم يودون من كل قلوبهم أن يتجملوا أمام الزائرين ، وأن يجعلونهم يتصرفون على راحتهم ، وأن يقدموا لهم أفضل ما فى وسعهم من الخدمات ، وكل ما فى الأمر أنهم لا يعرفون الوسيلة إلى تحقيق ذلك ؛ وهم عندما يخرجون عن حدود اللياقة والأدب ، فإن ذلك يكون بسبب الجهل المطبق ، وليس من قبيل الحقد المُبيَّت: وبين انعدام القصد فى ذهن غير مثقف تماماً، يكشف هؤلاء البدو ، من حين لآخر عن دلائل تشير إلى قدر كبير من الكياسة والحصافة الفطريتين ؛ فى حين تظهر من خلال التقلب الذى يناسب الرجال الذين لم يعتادوا التمسك بالضوابط الأخلاقية أو الضوابط البدنية ، بنيه أساسيه لطبيعة رجولية كريمة ، من قبيل الطبيعة التى نجدها أحياناً ، إن لم يكن دوماً فى الفرس أو الأتراك ، إن عيوب البدو تكمن فى ظروفهم ، كما أن خصائصهم الافتدائية تنبع من داخلهم .

ما الحسنه التى يمكن أن تنتظرها ؟ فى واقع الأمر ، من أناس أمضوا كل حياواتهم فى رعى الإبل فى البيداء الواسعة ، بلا قانون ، وبلا دين ، وبلا تثقيف وبلا أى مثل يحذون حذوه؟ وبدلاً من كل ذلك ، يعيشون فى عوز شديد ، وحرمان لا ينقطع ، وخطر دائم ، وأمن منعدم ، إنه التعليم الهمجى ؛ كما إنه من الطبيعى تماما أن تُخرِّج مثل هذه المدرسة تلاميذاً من هذا القبيل ، إن كل ما أتمناه من كل أولئك الذين يعْملون خيالهم فى إنتاج صور مثاليه للحياة الصحراوية ؛ ويفهمون البدو وظروفهم على إنها

جديرة بالإعجاب أو جديرة بالحقد والحسد ، أتمنى لو أنهم قضوا ثلاثة أيام في مخيم من مخيمات عرب الشرارات ليروا - لا من خلال وسيط الروايات الرومانسية ، التي كتبت بداهة ، كما يقولون طلبًا للمال - بأعينهم عمق الهوان الذي يمكن أن ينزل إليه عرق من أنبل الأعراق التي تعيش على الأرض ، بفعل تأثير الحياة البدوية الدنّية .

وأنا أقول : واحدا من أنبل أعراق الأرض ، لأن هذا هو واقع العرب المستقرين ، الذين تحكمهم حكومات منظمة ، والواقع أنني بعد الأسفار الكثيرة التي قمت بها وبعد أن تعرفت تمامًا على كثير من الأجناس الأفريقية ، والآسيوية والأوربية ، أجد من الصعب عليّ أن أفضل أي عرق من الأعراق التي تعرفت عليها ، على عشائر وسط وشرقي الجزيرة العربية ، تلك العشائر خالصة النسب غير المهجنة ، وبرغم أن هذه العشائر يجري في عروقها الدم نفسه الذي يجري في عروق البدو الرحل في هذه الصحراء ، وبرغم أنها تتكلم نفس اللغة التي يتكلمونها إلا أنها أعلى وأرفع مقامًا منهم إلى حد بعيد جدًا ، الفارق بين قاطع الطريق الهمجي والأجودي GENTLEMAN الإنجليزي في مدينة "روب روي" أو في مدينة "ويفرلي" ليس صارخًا تمامًا ، واسمحوا لي أن أورد هنا بعض الأمثلة لمحادثات البدو ، حتى يكون القارئ على بينه منها .

عادة ما يبدأ خطاب البدو المعتاد الذي لا تسبقه أية مقدمات ، على النحو التالي : "ما عملك ؟ وما هو الهدف من مجيئك إلى هنا ؟ وأجبنا على هذه الأسئلة على النحو التالي : " نحن طبيبان من دمشق ، والهدف من مجيئنا إلى هنا هو ما كتبه الله لنا" ؛ وكان السؤال الذي تلى ذلك متعلقًا بمتاعنا ؛ بينما راح أحدهم يتحسس ذلك المتاع بمشعابه ، لسيترعي إليه الأنظار ، وهو يقول : "وما هذا ؟ هل لديكم أشياء صغيرة تبيعوننا إياها ؟"

والعارفون بدقائق اللغة العربية ، يلاحظون ، عندما يلتقون هؤلاء الناس أول مرة ، مهما تدهورت أحوالهم الاجتماعية ، أن تعبيرات هؤلاء الناس ، مع بعض الإستثناءات الطفيفة جدًا ، سليمة تمامًا ، وأنها تخضع بشكل عام للقواعد الدقيقة ومقتضيات ما يسمى في بعض الأحيان، برغم عدم صحة هذه التسمية تمامًا ، "اللهجات القواعدية" ؛ ولكن سوف يتعين عليّ أن أعود إلى نفس الموضوع ، بالمزيد من الشرح والتفصيل ، عندما أصل إلى جبل شومر الذي اكتسبت ، أو بالأحرى احتفظت اللغة الدارجة فيه بأفصح وأنقى أشكالها المغرية ، هيا بنا ندع فقه اللغة جانبًا في هذه المرحلة ، ونعود إلى أولئك البدو الذين تركناهم في حالة اهتياج شديد بفعل متاعنا .

نحن نتجنب البيع : لأن مسألة عرض بضائعنا ومنقولاتنا أمام الجميع فى الهواء الطلق ، وعلى الرمل ، وأمام جمع لا يعطى مظهره ولا ظروفه أقل الضمانات التى تقضى بمراعاة الوصية الثامنة من الوصايا العشر ، هذه المسألة جديرة بأن نوليها حرصنا واهتمامنا ، وبعد عديد من المحاولات التى باءت بالفشل ، كف هؤلاء الناس عن طلبهم ، وهذا بدوى آخر يعانى من عيب جسمانى ، تفشل فى علاجه كليات لندن وباريس مجتمعة ، مثل اليد الضامرة أو العين العمياء تماماً ، يطلب دواءً ، يتوقع ، بعد أن يستعمله مباشرة ، أن يستعيد به كامل عافيته وصحته وسلامته ، ومع ذلك ، فقد سبق لى أن تلقيت تحذيراً مفادة أن البدوى هو البدوى سواء أكان يعيش فى ظروف طيبة أم مع الإبل ، وبنفس القدر من الحماس رفضت طلبه فى أدب ، ووجدته مصراً على طلبه ؛ ولكنى رددته إلى حال سبيله بكلمات ظريفة .

وأجابنى الرجل بصوت يشبه الأنين ، فى حين قطَّب الصبية عن جبائنهم ، دون وعى منهم ، مشاركة منهم لذلك القبلى الحزين . ، رد علىّ الرجل قائلاً : "إذا فأنتم تسخرون منا يا سُكَّان الحضر ، نحن بدو ، ولا نعرف شيئا عن عاداتكم ."

وينادى أحدهم الذى لاحظ أن غليونى كان لا يزال مملوءاً بالتبغ والذى أراد أن ينتهز الفرصة لاستجداء القليل من التبغ ـ برغم إنه كان لديه مخزوناً كبيراً منه وضعه فى خرقه ربطها إلى حزامه الملوث بالشحم ـ طالما إنه لم يستفد من الطب أو التجارة ، ينادى هذا البدوى قائلاً : "يا وُلِيد" ، (فهذا هو الاسم الذى ينادون به الذكور من سن الثامنة إلى الثمانين وبلا أى استثناء) . "هلاَّ ملأت غليونى بالتبغ ؟"

ولكن سليم SALEM الذى أصابه الخوف والفزع بين الحاضرين أعطانى إشارة بعدم الموافقة على ملئ غليون البدوى بالتبغ، وبناء عليه رفضت ذلك الطلب، وبرغم ذلك ، واصل البدوى التماساته ، وحذى حذوه اثنان أو ثلاثة آخرون ، مدَّ لى كل واحد منهم (إيماءه إيرلندية صرفه) قطعة من عظام النخاع ، مثقوبة من أحد طرفيها حتى يتسنى استعمالها غليوناً للتدخين ، أو حجراً مسامياً ، لا يشيع استعماله فى الصحراء ، ومشكل بطريقه بدائية تماماً ليكون جهازاً للتدخين ، أو إن شئت فقل إنه غليون مرشومى .

ومع ازدياد وقاحتهم ، ازداد غضبى أيضاً ، إذ كنت أقاطعهم قائلا : "أيها البدو ، إننا ضيوف عليكم ؛ ألا تخجلون من سؤالنا ؟" ويتدخل أحد الحاضرين الذين يجلسون

بجوار الرئيس وتبدو ملابسه أفضل حالاً من أولئك الأفراد الآخرين أنصاف وثلاثة أرباع العرايا الذين يكملون تلك الجماعة ، تَدخَّل هذا الرجل قائلاً : لا عليك ، لا تؤاخذنا ؛ إنهم رفاق جّهال ، أوغاد عديمو التربية ... إلخ " .

ويردف رئيس المجموعة قائلاً : "هل تؤهل بالتبغ غليون أخيك الصغير ؟" ثم يمد إلىّ غليونه الفارغ مع شئ من التواضع ، ولغة البدو ، شأنها شأن لغة السواد الأعظم من الشرقيين تزخر بالصور الرشيقة الأنيقة ، ومن ثم فأن كلمة "يؤهل" PEOPLE تدل على الكلمة "يملأ" FILL ، ويعطينى سليم إشارة بالموافقة ؛ وأتناول حفنة من التبغ ، وأضعها على كم قميص الرئيس ، الذى يقوم بدوره بربط كم القميص حول التبغ ، ثم تبدو عليه بعد ذلك دلائل البشر والسرور ، إن هؤلاء البدو يسهل ارضاؤهم تحت إى ظرف من الظروف .

والحوار الذى يكون من هذا القبيل والأنماط الكلامية المماثلة له هى التى تزجى الوقت بسرعة ، فمن البدو من ينهض وينصرف ، ومنهم من يجلس محل الذين انصرفوا ، وكلهم لديهم ملاحظات أو استفسارات ؛ فى حين سنحت الفرصة لنا تماماً بدراسة طبيعة أولئك البدو ، وميولهم ، وعاداتهم ؛ لأنهم كلما ابتعدوا عن التفكير فى حقيقتنا ، زاد تخليهم عن حرصهم وحذرهم .

غير أن الرؤيس ، بعد أن أعطيته نصيبه من التبغ ، الهدف الرئيسى للزيارة ، إن قدر لى أن أقول الحق ، عاد إلى خيمته ليصدر منها الأوامر اللازمة للترفيه المنتظر : وبعد ذلك بفترة قصيرة، شاهدنا مجموعة من الأفراد العاطلين وقد تجمعوا فى الخلف؛ وتلك إشارة إلى المكان الذى يجرى فيه ذبح شاة أو جمل ، تبعاً للظروف ، استعداداً لوجبة العشاء ، وبعد ذلك بفترة قصيرة أبصرنا الذبيحة ممددة بالقرب من أحد أركان الخيمه ، ليتم تقطيعها بواسطة المختصين على مرأى ومسمع جمهور من المشاهدين المهتمين بهذه العملية ، والسبب فى ذلك أن المخيم بكامله سوف يشارك فى المأدبة التى ستقام على شرف الضيوف .

ويقينا لوحدنا فترة من الوقت، نظراً لأن الطهو يبلغ من الأهمية حداً يسمح بتغيب الجيران الذين يشاركون فيه ، ففى أوربا يقال إن كثيراً جداً من الطهاة يكون تأثيرهم سيئ على المرق ، ولكن الطهو فى هذا المكان من الجزيرة العربية يبلغ من السهولة حداً يصعب عنده تلف الطعام ، ومسألة إشعال النار من تحت مرجل كبير لم

يطهّر مطلقًا ، ثم تسخين الماء إلى أن يغلى ، ثم بعد ذلك إلقاء أرباع الذبيحة فى الماء إلى أن تصبح شبه ناضجة فى شحمها ، هذا هو كل فــن الطهو فى ولائم البـدو ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل .

ومع ذلك ، فإن هذه العملية تستغرق شيئًا من الوقت ؛ والسبب فى ذلك أن النار التى يشبها الناس فى الهواء الطلق لا تعمل عملها بسرعة كما لو كانت فى موقد داخل المطبخ ، زد على ذلك أن كتل اللحم الكبيرة لا يمكن تقطيعها بسرعة إلى قطع تناسب الأكل ، من هنا ، تكون النجوم قد ظهرت فعلاً فى السماء ، ويكون نسيم الليل قد برّد الرمال ، قبل أن نسمع الجَلَبة المعتادة بين الواقفين وتدافع الشرر الذى يوحى بأن المرجل قد رُفِع أخيرًا عن الأحجار التى كانت تعمل عمل التنور ، ويتم بعد ذلك التخلص من الماء ، ثم يُكَوَّم اللحم بطريقة عشوائية فى طبق خشبى كبير شديد الاتساخ ، وبدون أى تتبيل أو إضافات أو أى شئ آخر ، ثم يوضع ذلك الطبق على الأرض فى منتصف المسافة فيما بيننا وبين الخيام .

ثم يحضر الرئيس ، أو شاب بدون سروال طويل من أفراد أسرته ، ليقول لنا : "تفضلوا" ، بمعنى شرفونا بقبول دعوتنا ، وبعدها نقترب من الطبق ، ولكننا سمعنا ، قبل أن نتخذ أماكننا حول الطبق ، سمعنا اندفاعًا من جميع الأنحاء فى اتجاه مركز الجذب العام ، وتكونت دائرة كبيرة راحت تنتظر فى صمت إشارة البدء والذى يعطى إشارة البدء هو الرئيس ، الذى يكرر صيغة الترحيب نفسها ، وهنا يتناول سليم ورفيقى (وأنا أعترف هنا أننى كنت أعزف دائمًا عن هذه المناسبات لا بسبب الشبع وإنما لأن نفسى كانت تعافها) وصلة كبيرة من اللحم شبه الناضج ، ويشداها فى اتجاهين عكسيين ، ويقسماها إلى قطع يسهل تناولها أو التعامل معها ، ثم يبدأ الجميع فى تناول الطعام ، وتمتد إلى الطبق ثلاثين أو أكثر من الأيدى غير المغسولة ، وخلال خمس دقائق يجرى جمع العظم الخالى تمامًا من اللحم ليقدم غذاءً للكلاب الهزيلة ، التى تقوم بالحراسة ، وبذلك يصبح العظم هو كل ما تبقى من هذه المأدبة .

ويكرر المضيف الكلام نفسه على فترات قصيرة ، ويستعرض أسلوب الكرم بأن يكون هو نفسه مثالاً طيبًا عليه فيقول : "لماذا لا تأكلون ؟ كلوا ، اشتغلوا ؛ يا مئة مرحبا بضيوفنا الكرام" ، وإن جاز لى أن أبدى ملاحظة هنا فإننى سأقول : إنه لو قدر للسلطان نفسه أن يكون فى مكاننا ، فإنه لن يحصل على أحسن من ذلك ، والسبب فى

ذلك ، بسيط للغاية ، وهو أن عرب الشرارات ليس لديهم أفضل مما يقدمونه في هذه المناسبة .

ثم يمرر ، الماء الذى له نكهة النوشادر النفاذة ، والذى يجرى جلبه من منطقة قريبة جداً من الإبل ، إلى الآبار التى يجرى فيما بعد سحبه منها للاستعمال ، يمرر هذا الماء على كل من يرغب الشرب ، فى سطل صغير ، لا يجد مكاناً له فى إنجلترا إلا بجوار لجام مهر صغير ، وأيا كان الأمر ، فنحن عندما نشارك فى الشرب من محتويات ذلك السطل ، لا ينسى من سيأخذ من السطل بغيته أن يقول : "هنا" أو "بالصحة" ، وذلك من قبيل المجاملة ، ويشير إلى أن نمرر له السطل .

ثم ننصرف بعد ذلك عائدين إلى متاعنا والمنحدر الرملي ؛ والسبب فى ذلك أن النوم فى خيمة المضيف ليس من عادات الحياة البدوية الحقيقية ، زد على ذلك أن صغر حجم المنزل الذى تتزاحم فيه أسرة من جميع الأجناس ، وعدم تقسيمه إلى غرف مستقلة ، هو الذى يفسر هذا الاستعمال الحذر ويبرره ، ذلك الاستعمال الذى ليس له علاقة بالكرم مطلقاً .

وهواء الليل فى هذه القفار هو بحد ذاته حياة وصحة ، فنحن ننام نوماً عميقاً دون إزعاج من أحد يوقظنا فى ساعة مبكرة لنواصل مسيرنا فى صباح اليوم التالى ، والسبب فى ذلك أن البشر والحيوانات يحتاجون على حد سواء ، إلى أن يرتاحوا يوماً كاملاً ، وعندما تشرق الشمس يدعوننا إلى خيمه الرئيس ومعنا متاعنا ليكون فى حماية تلك الخيمه ، وهدف المضيف الرئيسى ، من هذا التصرف ، هو محاولة الاستفادة لنفسه ، بصورة أو بأخرى ، من هذه الزيارة ، إما عن طريق التهادى أو الشراء ، والرئيس يتلاعب هنا بكل ما فى وسعه من أدب ، وسرعان ما يظهر على المسرح سطل من حليب النّياق ، ذلك المشروب الممتاز ، ويتعين علىّ هنا ، أن أترك للمحللين الكيماويين مسألة تحديد الأسباب التى لا تجعل هذا النوع من الحليب ينتج زبداً ، لأن هذا هو الواقع ، ويكفينى أن أشهد هنا على أن هذا النوع من الحليب له خصائص مفيدة ومغذى بدرجة كبيرة جداً .

ثم نقوم بعد ذلك ، وبناء على طلب مُلح من الرئيس ، ومن زوجته ، وأخواته ، وأبناء عمومته ، ولاطلاعهم الخاص وليس أحد سواهم ، نقوم بفتح ركن من زكائبنا ، وبعد كثير من المساومة والمماحكة نبيع لهم قطعة من القماش ، أو عصابة رأس ، أو أى

شئ من هذا القبيل ، والمشكلة هنا تتمثل فى دفع ثمن الشئ المبا ع ؛ ذلك أن صديقنا ليس على استعداد تمامًا فحسب للتخلى عما يملكه من نقود ، وإنما لأنه جاهل تمامًا بالقيمة النوعية المحددة لمكونات تلك النقود ، وتأسيسًا على ذلك ، يتعين عقد مجلس من حكماء القبيلة للبت فى قيمة كل قطعة من قطع النقود المعدنية، وبعد تحديد هذه القيمة، تجرى عملية التجميع الإجمالى ، وهى عملية تتطلب من البدو مجهودًا ذهنيًا جبارًا ، إذ أن عملية الحساب هذه تتكرر بنودها عشرات المرات قبل أن يعرف البدوى إن كان ما بيده المتسخة هو عشرون أم ثلاثون قرشًا .

سوف أتكلم عن النقود المعدنية السائدة فى الجزيرة العربية عندما أصل إلى جبل شومر أو الرياض ؛ والسبب فى ذلك أن إعطاء فكرة واضحة عن هذا الموضوع قد يحتم علىَّ أن استطرد فيه لفترة طويلة جدًا تبعدنى عن موضوع البدو .

ويمضى النهار ، ومن الطبيعى تمامًا أن يظن مضيفنا أننا جائعون ، ويترتب على ذلك إحضار طبق جديد إلينا ، يشبه إناء كبير به عجين مجروش أحمر اللون ، أو الرَّدَّة المخلوطة بالمُغْرة[1] الصفراء ، وهذه مادة يعيش عليها بدو شمالى الجزيرة العربية ويطلقون عليها اسم سمح SAMH ، وينمو خلال ذلك الجزء من الصحراء ، نبات عشبى مسامى ، سيقانه كثيرة العصارة وأوراقه صغيرة بيضوية الشكل تميل إلى الاصفرار ؛ وزهور هذا النبات صفراء فاقع لونها ؛ تحتوى على كثير من أعضاء التأنيث وأعضاء التذكير ، وبعد أن تتساقط زهور هذا النبات تخلف وراءها كبسولات كل واحدة منها مغلفة فى أربع ورقات ، وهى فى حجم حبة البازلاء المعتادة ، وعندما تنضج تلك الكبسولات ، تتفتح لتكشف بداخلها عن مجموعة من الحبوب الصغيرة التى يميل لونها إلى الاحمرار ، تشبه البرغل (الجريش) من حيث الملمس والمظهر ، ولكنها تنتمى إلى المواد النشوية ، وموسم نضوج هذه النباتات يكون فى شهر يوليو ، الذى يخرج فيه الكبار والصغار ، والرجال والنساء لحصاد ذلك المحصول الذى لم يبذروه ولم يفلحوه ، وهم يجمعون الكبسولات، ويفصلون الحبوب عنها ، ويحتفظون بها كمخزون من الدقيق (الطحين) للعام المقبل ، والبدو عندما يحتاجون هذه الحبوب ، يجرشونها فى رحاة ، ثم يخلطونها بالماء ، ويسلقونها فى المادة الموجودة أمامنا الآن ، وقد وصف سليم مذاق

(١) أكسيد حديديك مائى يكون لونه أصفر أو أحمر (المترجم) .

ونوعيه هذه المادة وصفًا سريعًا ، عندما قال : "إنها ليست فى جودة القمح (البر) ، ولكنها أفضل من وجبه الشعير" .

لقد شكرنا العناية الإلهية التى وفرت لهؤلاء البدو الرُّحل مادة يعيشون عليها ، والتى لولاها لتعرضوا لمخاوف وأهوال الموت جوعًا ، لقد بلغ هؤلاء البدو من الكسل مبلغًا كبيرًا لا يستطيعون عنده فلاحة الأرض أو زراعتها حتى وإن توفرت المياه الجوفية التى تجعلها صالحة للزراعة ، ولولا هذا النبات ، لاقتصر هؤلاء الناس فى معيشتهم على حليب ولحوم الجمال التى يرعونها ، وهذا بحد ذاته ليس مصدرًا كافيًا للغذاء ، فى حالة عدم توفر مصادر أخرى ، غير أن نبات السمح ، الذى ينمو فى كل مكان بشكل طبيعى ، ويعطى انتاجًا بدون زراعة أو فلاحة ، هو الذى يسد هذا العجز وهو الذى يشكل أيضًا المادة الأساسية فى غذاء هؤلاء البدو ، إنه مادة الحياة بالنسبة لهم ؛ وبرغم أن السمح لا يغنى تمامًا من الجوع أو غير مستساغ من أولئك الذين اعتادوا تناول غذاء أفضل منه ، إلا أنه يشبع أولئك الذين نادرًا ما تناولوا أولم يتناولوا قط شيئا مغذيًا أو أفضل من السمح .

والمصاع نعمة أخرى من نعم الطبيعة ، وهو عبارة عن ثمرة شهيرة لدى البدو ، برغم أن غيرهم يتجاهلونها، وشجيرة المصاع يتردد ارتفاعها بين قدمين وثلاثة أقدام ، وشجيرات المصاع شجيرات غابيه ومتشابكة ، ولها أوراق صغيرة مدببة شديدة الاخضرار ، وزهورها تشبه النجوم وتميل إلى الاحمرار ، وبعد أن تتساقط هذه الزهور فى شهر يونيو ، تخلف وراءها قرونًا تشبه إلى حد كبير حبَّة الكشمش[1] الأوربية من حيث الحجم ، واللون ، والمذاق ، ولكن ليس لها النكهة نفسها ، فى حين تتفوق حلاوتها على حموضتها تفوقًا كبيرًا ، والبدو يجمعون ثمرة المصاع ويلتهمونها ، أو يسلقونها فى شئ من الماء ، ليحصلوا بذلك على نوع من الدبس ، الذى يحترمه البدو ، وحدهم ، احترامًا كبيرًا ، وبذلك نجد أن قائمة مأكولات البدو تتكون من المصاع والسمح ، الذى أتينا على ذكره ، وحليب النياق ، ووجبه موسميه من لحم القصاب ، برغم أن هذه الأخيرة تعد شكلاً من أشكال الترف النادر .

وليس من بين أفراد قبيلة الشرارات كلها أحد يتفاخر بامتلاك دلة القهوة أو القهوة نفسها ؛ لأن ملكية الأشياء التى من هذا القبيل جماعية بين البدو العرب ـ

(١) حبة مثمرة من الفصيلة الكشمشية تزرع لثمرها (المترجم) .

المجلس الأعلى للثقافة

Central And Wastern Arabia

William Gifford Palgrave

هذا الكتاب كتبه مؤلفه منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عامًا ، ويتناول فترة زمنية مراجعها السياسية نادرة جداً وغير دقيقة ، وإذا كان بوكو Pocoke الفرنسي ، وبركخاردت Burckhardt ونيبور الألمانيين قد كتبوا عن هذه المنطقة من الناحية الجغرافية أو الطبوغرافيه فقط ، بحكم أن ما كتبوه كان على مرأى ومسمع من السلطات التى كانت تقوم على أمر تلك المنطقة فى ذلك الوقت ، فإن كتاب "وسط الجزيرة العربية وشرقها" يتناول الجانب الديموغرافى والأنثربولوجى الذى غاب عن هؤلاء المؤلفين .

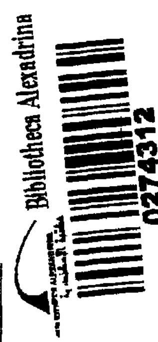
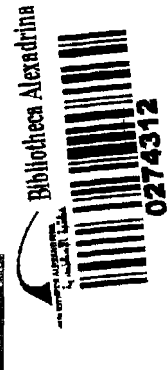
ومؤلف هذا الكتاب إنجليزى دمًا ولحمًا ، أعد نفسه لموضوع هذا الكتاب إعداداً جيداً ؛ فقد درس العربية إلى أن كادت تكون لغته الأم ، فضلاً عن إجادته للغات الفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، وكذلك اللغة اللاتينية ، ومعرفته أيضًا للغة اليونانية القديمة ، كما درس أيضًا مقرراً فى طب المناطق الحارة .

وتستمر رحلة هذا المغامر عامًا كاملاً ، يجمع خلاله مادة علمية أصيلة ، من أفواه الناس ، ومن ملاحظاته الشخصية ، ليكتب كتابًا فى مجلدين إجمالى صفحاتهما حوالى ألف ومائتى صفحة من القطع الكبير .

وعلى الصعيد اللغوى يندرج الكتاب ضمن الأدب الراقى ، ودقة مؤلفه فى اختيار ألفاظه ومصطلحاته تغيظ قارئ النص الإنجليزى ، وتفاصيل الكتاب كثيرة وتشد الانتباه وتوحى بغزارة مادته .

والكتاب جرئ سياسيًا ؛ لأنه يتعرض لكثير من الأمور السياسية الحساسة التى لا يعرف كثير من المثقفين وصنّاع القرار حقائقها الأصلية ، كما يكشف الكتاب أيضًا عن كثير من حقائق المطبخ السياسى فى ذلك الوقت ، وسيثير الكثير من الجدل السياسى والعلمى ، ويصحح كثيراً من المفاهيم المغلوطة .

المشروع القومى للترجمة

الجزء الأول